د. عبد الستار الحلوجي
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات

دار الثقافة للنشر والتوزيع
٢ شارع سيف الدين المهراني ـ الفجالة / القاهرة
ت / ٩٠٤٦٩٦

١٩٩١/٩٠

الطبعة الثالثة
١٩٨٧

مقدمة

عالم الفكر والفلسفة . . .

عالم الفن والأدب . . .

عالم العلم والدين . . .

هذا العالم العجيب ، عالم الكتب ، هو موضوع هذا الكتاب .

وعلى مدى التاريخ كله كان للكلمة المكتوبة سحرها الذى لا ينتهى . ومن أجل هذا احتضنتها المعابد الوثنية والأديرة المسيحية والمساجد الإسلامية واتخذتها وسيلة لنشر المبادئ والأفكار العقائدية ، ولم تجد الدول الحديثة عنها بديلا لنشر مبادئها السياسية والاجتماعية .

ولقد كان كارلايل على حق حين قال إن الكتابة كانت أكبر معجزة حققتها الإنسانية. فتاريخ البشرية قبل اختراع الكتابة ضرب من الأوهام والأباطيل. ويوم بدأ الإنسان يسجل أفكاره ومعتقداته حفراً فى الصخور ونقشا على الحجارة كان بذلك يضع اللبنة الأولى فى صرح حضارته . وقرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، كان البناء يرتفع وكانت البشرية تضيف إلى تراث الأمم الخالية ما تتوصل إليه فى مختلف مجالات الفكر والإبداع .

وعلى مدى قرون من الزمان عديدة لم يكن أمام الإنسانية من وسائل الثقافة والتسلية غير الكتب ، ومن أجل هذا كانت وسيلة تثقيف وترفيه معاً . وحينما

ظهر الراديو والتليفزيون والسينما فى العصر الحديث كأوعيــة للفكر وقنوات للاتصال ، لم تفقد الكلمة المكتوبة سحرها وتأثيرها لأن هذه الأجهزة جميعها تستقى مادتها التى تقدمها للسامعين والمشاهدين من الكلمة المكتوبة .

وفى المكتبة نلتقى بالأقزام والعمالقة ، بالسادة والعبيد ، بالمؤمنين والملحدين، بالصالحين والطالحين ، بالخياليين والواقعيين ، بالقدماء والمحدثين ، كل أولئك وقد تجاوروا وتساووا أمام الكلمة المكتوبة . يستوى فى ذلك الفيلسوف الذى يحلق بفكره فى آفاق السماء ، والجيولوجى الذى يغوص بعلمه فى أعماق الأرض .

فى المكتبة يلتقى الماضى بالحاضر ، ويطل الحاضر على المستقبل ، وتجتمع السماء والأرض ، وتتمثل الحياة بكل ما فيها من قيم ومبادئ وصور وأشكال .

وعلى مدى التاريخ كله كانت الكتب والمكتبات هى الوعاء الذى تجمع فيه عصارة الفكر الإنسانى والحضارة الإنسانية . ومن أجل هذا لا نبالغ إذا قلنا إن تاريخ الكتب والمكتبات يعطينا صورة أمينة لتاريخ الإنسان فى صراعه من أجل المعرفة ، من أجل الحياة ، من أجل البقاء . . .

وفى الصفحات التالية نتتبع الخيط الحضارى من أوله ، ونمضى معه من عصر إلى عصر ومن بلد إلى بلد حتى نصل إلى حيث نحن الآن ، ثم نحاول أن نستشرف آفاق المستقبل بكل ما فى قلوبنا من أمل ورجاء .

ولقد قدر لهذا الكتاب أن يرى النور منذ ثمانى سنوات حين نشرته جمعية المكتبات المدرسية بالقاهرة مفتتحة به سلسلة « الفكر العربى فى أدب المكتبات » . وخلال هذه السنوات الثمان كنت أتمنى أن يصدر كتاب جامع عن تاريخ الكتب والمكتبات وكنت أترقب ظهور دراسات تتعمق تاريخ المكتبات العربية خاصة ، وإنه لتاريخ حافل مجيد .

ولكن السنين مضت دون أن يتحقق شيء من هذه الأمنيات . ونفدت طبعة هذا الكتاب ، ففكرت في إعادة نشره بعد أن أوفيه حقه من التفصيل ، لكن التفصيل يحتاج إلى تفرغ طويل ، وهو أمر هيهات أن يظفر به الإنسان في هذا العصر الذي نعيش فيه .

وأمام تلك الرغبة الملحة في التوسع فيما كتبت من ناحية ، وضيق الوقت وكثرة الشواغل من ناحية أخرى ، والحاجة إلى كتاب عربي يغطي هذا الموضوع من ناحية ثالثة ، رأيت أن أعيد النظر في الكتاب ، وأن أضيف إليه إضافات يسيرة في مواضع متفرقة منه ، وأن أعيد كتابة الفصل الخاص بالمكتبات الإسلامية بشيء من التفصيل ، وكان ذلك — في نظري — أضعف الإيمان .

فإن رضي المكتبيون مني بأضعف الإيمان فلهم أجزل الشكر ، وإن لم يرضوا فلعل ذلك يدفعهم إلى دراسة أكثر عمقا وتفصيلا ولهم أطيب الأمنيات .

يناير ١٩٧٩ — **عبد الستار الحلوجي**

إهداء

إليـــه ...

إلى النبع الدافق والبحر الزاخر بالحب والعطف والحنان .

إلى القلب الكبير الذى وسعنى صغيراً وكبيراً .

إلى الصورة الكريمة التى تحتفظ بشبابها فى القلب ، وتحتفظ للقلب بشبابه .

إلى أكبر حب عرفته فى حياتى ، وأصفى نبع ارتويت منه فى طفولتى وشبابى .

إلى من علمنى حب الناس ، وحب الخير للناس .

إليـــه ...

إليه فى شبابه وشيخوخته .

فى صحته ومرضه .

فى رخائه وشدته

إلى أبى ...

أهدى هذا الكتاب ، وفاء وعرفانا ، وإجلالا وتقديراً ، وتعبيراً عن بعض

ما يحمله له قلبى الصغير من حب كبير .

عبد الستار

مصر والشرق القديم

تاريخ الكتب والمكتبات تاريخ طويل عريض . طويل لأنه يبدأ من أعماق الزمان ويمتد إلى هذا العصر الذى نعيش فيه ، وعريض لأنه لايتحدد بقطر من أقطار الأرض ، أو أمة من أمم العالم القديم أو الحديث ، وإنما هو يتتبع مراكز الإشعاع الثقافى وينتقل معها على مرّ العصور من قطر إلى قطر ، ومن وطن إلى وطن.

وفى أرض الشرق القديم تمتد أعمق جذور هذا التاريخ الطويل ، فمنذ مايقرب من خمسة آلاف عام عرف المصريون الكتابة وسجلوا بها وصاياهم وتعاليمهم فى الدين والأخلاق . وفى المكتبة الأهلية بباريس بردية كتبت فى عصر الأسرة الثانية عشرة (٢٢١٢ — ٢٠٠٠ ق .م.) تحمل نصوصا وتعاليم يرجع تاريخ تأليف بعضها إلى ماقبل سنة ٣١٠٠ق .م.[1] كذلك وصلتنا نسخ من كتاب الموتى ترجع إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ — ١٣٢٠ق . م .)[2] أما النص نفسه فقد ألفت بعض فصوله قبل ذلك التاريخ بخمسة عشر قرنا أو يزيد .

وإلى جانب ماتم الكشف عنه من كتابات مصرية قديمة على البردى ذكرت المصادر التاريخية أن زوسر الذى حكم مصر حوالى سنة ٣١٥٠ ق . م . كان من مشجعى الآداب والفنون ، وعثر المنقبون على صور ومقابر لأشخاص من الأسرة الرابعة (٣١٠٠ — ٢٩٦٥ ق . م .) وصفوا بأنهم كتبة . ومعنى هذا أن كل

---

(1) Books and Readers in Ancient Greece and Rome : 4
(2) Ibid : 5

شيء كان مهيأ لظهور المكتبات على ضفاف النيل منذ آلاف السنين . وتلك حقيقة تؤكدها عبارة وجدت مكتوبة على قبر موظف كبير في عصر الأسرة الرابعة تقول إنه «كاتب دار الكتب»(١) .

وإذن فقد وجدت دار للكتب في مصر القديمة قبل الميلاد بما يقرب من ثلاثة آلاف عام . وفي حدود سنة ٢٠٠٠ ق . م . كانت هناك مكتبات «تحوى برديات مطوية ومحفوظة في جرار ممنونة ومصفوفة على رفوف»(٢) . ولكن ما وصلنا من تلك المكتبات أو عنها لا يكفي لتكوين صورة كاملة عن محتوياتها وأنظمتها وعن الدور الذي نهضت تاريخ المعرفة الإنسانية .

فإذا انتقلنا من مصر القديمة إلى بلاد الشام وجدنا آثار مكتبة عثر عليها في سنة ١٩٢٩ برأس شمرا في الشمال الغربي من سوريا يرجع تاريخها إلى النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد (٣). وفي زابونا عثر على مكتبة كاملة من الألواح الطينية(٤) بعضها مكتوب بالهيروغليفية وبعضها بحروف هجائية سامية . ولما كانت

---

(١) Dawn of Civilization : 398

(٢) قصة الحضارة : ٢ : ١١٢

(٣) Books and Readers in Ancient Greece and Rome:8

(٤) بينما استخدم المصريون البردي كمادة لتلقي الكتابة ، كانت الأمم القديمة تكتب في ألواح من الطين أو الخزف أو الخشب ، وكانت الصورة الأولى للكتابة على هذه الألواح هي الحفر بآلة مدببة . وبعد ذلك كانت الألواح تطلى باللون الأبيض ويكتب عليها بالمداد أو تكسى بطبقة من الشمع تحفر فيها الكتابة ثم تجمع الألواح التي كتب عليها نص معين وتحزم معا على هيئة كتاب . وقد كانت الألواح منتشرة في العالم اللاتيني واليوناني وفي الشرق بصفة خاصة ، =

زابو نا قد دمرت حوالى عام ۱۲۰۰ ق م قبل أن تستكمل نموها، فأكبر الظن أن هذه الألواح يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد »[1]

وإذا اتجهنا شرقا الى بلاد مابين النهرين طالعتنا كتب البابليين والآشوريين منذ الألف الثالث قبل الميلاد ، فقد « كانت الألواح الطينية المحفوظة فى جرار مصنفة ومرتبة على رفوف تملأ عدداً كبيرا من المكتبات فى هياكل الدولة البابلية وقصورها »[2] ، وكانت المكتبات هى « أهم مايخلد ذكر آشور فى تاريخ الحضارة » كما يقول ديورانت .[3] وقد عثر فى أواخر القرن الماضى على معبد فى ضواحى مدينة نيبور Nippur البابلية امتلأت حجرات كثيرة منه بألواح من الطين كانت فى الأصل جزءا من مكتبة غنية ومستودع للوثائق التى ترجع إلى ما قبل سنة ۲۰۰۰ ق . م .[4] وفى آثار مدينة نينوى عثر فى منتصف القرن الماضى على محفوظات وألواح من مكتبة الملك آشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٢٦ ق .م.) الذى عنى بجمع تراث البابليين والآشوريين فى مختلف فروع المعرفة ، فأنشأ المكتبة وجند لها عددا من الموظفين والناسخين وأمر بأن تودع بها نسخ من المدونات الهامة كتبا كانت أو رسائل أو وثائق ، فبلغت مقتنياتها ثلاثين ألفا من الألواح

= وكانت أنسب لكتابة الرسائل والنصوص القصيرة أو المؤقتة لسهولة محو النصوص القديمة وإثبات النصوص الجديدة مكانها .

(۱) قصة الحضارة : ۲ : ۳۱۷

(۲) قصة الحضارة : ۲ : ۲۳٦

(۳) قصة الحضارة : ۲ : ۲۸٤

(٤) تاريخ الكتاب : ۹ ، وأيضا :
Books and Readers in Ancient Greece and Rome:6

الطينية التى تسجل أدب الأشوريين وتاريخهم وحروبهم ووثائقهم الرسمية ومراسيمهم الملكية .

وكانت الألواح فى تلك المكتبة مرتبة فى مجموعات بحيث لاتختلط ألواح النص الواحد بغيرها ، فكان كل لوح يحمل عنوان السلسلة التى يأتى ضمنها ويبدأ بتكرار السطر الأخير من اللوح السابق عليه ، حتى إذا كان اللوح الأخير من النص ذكر فيه عدد الألواح التى يشملها الكتاب كله .[1] ومن الطريف أننا نجد كثيراً من ألواح تلك المكتبة يحمل اللعنة على كل من يعبث به أو يضعه فى غير موضعه : « فليحلّ غضب أشور وبليت على كل من ينقل هذا اللوح من مكانه أو يكتب اسمه عليه بجانب اسمى ، وليمحوا اسمه وذريته من على ظهر الأرض »[2] .

وقد دلت الأبحاث التى عملت على آثار هذه المكتبة أن ألواحها كانت مصنفة تحت رءوس موضوعات ستة هى : التاريخ والقانون والعلوم والسحر والعقائد والأساطير ، وأنها كانت مفهرسة فى فهرس عام ، وربما فى فهرس مصنف أيضا[3] .

ولم ينفرد الشرق الأوسط بوجود المكتبات فى ذلك التاريخ البعيد وإنما كان للشرق الأقصى نصيبه أيضا . فقد كان للصين القديمة أدبها وتاريخها وكتاباتها وكان لها مؤرخوها الرسميون الذين يؤرخون لها منذ سنة ٣٠٠٠ ق . م. ويعتبر

---

(١) انظر : A History of Libraries :2& 129 وتاريخ الكتاب : ١١

(٢) Ancient Times: 161

(٣) The Care of Books:3—4

كتاب « التغيرات — إي‌جنج » الذي كتبه ون‌وانج في منتصف القرن الثاني عشر قبل الميلاد تقريبا بداية تاريخ التفكير الصيني المدون . ويحدثنا المؤرخ الصيني زوماتشين أن « لو — دزه (٦٠٤ — ٥١٧ ق .م .) أعظم فلاسفة الصين قبل كنفوشيوس ، مل عمله في أمانة مكتبة جُو الملكية فاعتزم أن يغادر الصين ليبحث له عن ملجأ بعيد منعزل في الريف » .(١) ومعنى هذا أن المكتبات وجدت في بلاد الصين منذ عصر « جو » ، أي منذ أكثر من ألف عام قبل الميلاد على أقل تقدير .

ولقد شهدت الصين في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد نهضة فكرية تجلت أروع مظاهرها في الأدب والفلسفة . ولسنا نشك في أن تلك النهضة كانت لها انعكاساتها الواضحة على عالم الكتب والمكتبات .

* * *

من كل ماتقدم يتبين لنا أننا ينبغي أن نتلمس أعمق جذور تاريخ الكتب والمكتبات في تلك الأرض التي نعيش عليها في شرقنا الأوسط ، فعليها أقيمت أقدم مكتبات التاريخ ، وفي ثراها استقرت النصوص المكتوبة آلاف السنين شاهداً على حضارة،ودليلا على معرفة ، ورمزاً لما كانت تحظى به الكلمة المكتوبة من اهتمام وتقدير .

---

(١) قصة الحضارة : ٤ : ٣٠

اليونان

وبدايات تاريخ الكتب والمكتبات عند اليونان يكتنفها الغموض والإبهام. فلم يبق لنا الزمن من آثارهم المكتوبة شيئا موغلا فى القدم كما فعل بالنسبة لغيرهم من أمم العالم القديم. ولعل السبب فى ذلك أن البابليين والآشوريين — مثلا — كتبوا فى الألواح وهى أكثر احتمالا وأبقى دواما، وأن المصريين وإن كتبوا فى أوراق البردى إلا أن رمال مصر الدافئة قد حنت عليها وحفظتها على حالها آلاف السنين، بينما كانت رطوبة الجو فى بلاد اليونان من أخطر عوامل التلف والفساد بالنسبة للبردى وغيره من مواد الكتابة التى استعملها اليونانيون فى تاريخهم السحيق.

وعلى مقربة من بلاد اليونان عثر السير آرثر إيفانز Arthur Evans على ألواح فى جزيرة كريت تؤكد أن الكتابة قد عرفت واستعملت فى تلك الجزيرة منذ سنة ٢٠٠٠ ق. م. على الأقل[1]. وليس يعقل أن شعباً كشعب اليونان القديم كان يجهل أمر الكتابة التى وجدت واستعملتها شعوب مجاورة له فى تلك الحقبة من التاريخ البعيد. ولعل وجود آثار أدبية طويلة كالإلياذة والأوديسا يؤكد أنها كانت أشعارا مكتوبة وإلا لاستعصت على الذاكرة ولما خلدت على الزمن واحتفظت بنصوصها ثابتة دون تبديل أو تغيير.

فالأمة اليونانية إذن قد عرفت الكتابة منذ أيام هوميروس وإن لم تتوسع فى

(1) Books and Readers in Ancient Greece and Rome : 7

استعمالها إلا بعد ذلك بوقت طويل . وأكبر الظن أن الكتب لم توجد فى بلاد الإغريق إلا ابتـــداء من القرن السابع قبل الميلاد حين ظهرت بواكير النهضة الأدبية ، وأنها لم تنتشر إلا بعد ذلك بقرنين حينما بلغ الأدب اليونانى قمة التطور والازدهار على يد بندار وأخيل ومن بعدهما سوفوكليس ويوريبيدس وهيرودوت وغيرهم ممن أعطوا للفكر اليونانى قيمته الإنسانية الخالدة . فى هذا القرن الخامس قبل الميلاد كانت الحياة الاجتماعية التى يحياها الأثينيون خارج بيوتهم تغرى الناس بقراءة الكتب كأداة للدرس والتحصيل وكوسيلة من وسائل المعرفة والتسلية والجدل فى وقت لم تكن الصحف قد عرفت فيه بعد لتشغل على الناس أوقات فراغهم. ونتيجة لهذا نشطت سوق الكتب فى أثينا وأصبحت فى متناول أوساط الناس ، وإن كنا نشك فى مدى نمو عادة القراءة عند الإغريق فى ذلك الزمان ومدى تداول النصوص المكتوبة بين جماهير الشعب . أما بالنسبة لقادة الفكر فأكبر الظن أنهم كانوا يحتفظون لأنفسهم بمجموعات خاصة من الكتب بدليل ما تذكره المصادر القديمة من أن ديموقريطس ويوريبيدس — وهما من رجال القرن الخامس قبل الميلاد — كان لكل منهما مكتبته الخاصة ، وما يذكره زينوفون Xenophon فى القرن الرابع عن عدد الكتب التى كان يملكها يوثيديموس أحد أتباع سقراط[1] ، وما تؤكده البرديات التى عثر عليها فى مصر من وجود مكتبات خاصة فى ذلك التاريخ البعيد كتلك البردية التى عثر عليها فى الفيوم وبها ذكر ١٣٢ لفافة فى الفلسفة و ٢٩٦ لفافة فى الطب كانت ضمن مقتنيات إحدى المكتبات

---

(1) The Care of Books : 5.

الخاصة فى القرن الثالث ق. م [1].

ومع أنه وجد فى أثينا مركز للوثائق منذ القرن الخامس قبل الميلاد إلا أنه حتى هذا العصر الذهبى للأدب اليونانى لم يكن قد آن الأوان بعد لنشأة المكتبات العامة أو مكتبات البحث لأن فكرة هذه المكتبات لم تولد إلا فى حجر مدارس الفلسفة اليونانية التى ظهرت فى القرن الرابع قبل الميلاد وكانت تقوم مقام الجامعات فى العصر الحديث، فقد كان عصر أفلاطون عصر بحث وتفكر فى الدين والفلسفة، وكانت طريقة الحوار التى يتبعها أفلاطون فى تدريسه تفرض على السامعين اطلاعاً وبحثاً دائمين. فاذا أضفنا إلى ذلك أن أفلاطون كان يتكلم فى محاوراته عن بعض الكتب الأثينية التى لا نشك فى أن جمهور مستمعيه كان على علم بها. أقول: إذا أضفنا ذلك إلى ما سبق، استطعنا أن ندرك أن أكاديمية أفلاطون التى أنشئت فى القرن الرابع قبل الميلاد لتكون مركزاً للبحث العلمى، والتى امتدت بها الحياة الخصبة النامية ما يقرب من عشرة قرون من سنة ٣٨٥ ق. م. إلى سنة ٥٢٩ م حين أغلقت أبوابها على يد جستنيان، هذه الأكاديمية لا شك أنها كانت تربة خصبة لإنبات فكرة إنشاء مكتبة تجمع ما تناثر من الكتب والوثائق، لأن المكتبة بالنسبة لها كانت ضرورة من ألزم الضرورات.

ولم تكن مدرسة أفلاطون فريدة فى إقامة مكتبة خاصة بها، فالتاريخ يحدثنا أنه فى سنة ٣٠٦ ق. م. كانت المدرسة الأبيقورية تفتح أبواب مكتبتها للقراء.

وبانتقالنا من جيل أفلاطون الى جيل أرسطو تطالعنا إرهاصات الفجر الجديد لتاريخ الكتب والمكتبات، فلقد كان عصر أرسطو بحق عصر التحول العظيم إلى

(1) The Oxford Classical Dictionary : 503.

القراءة من ناحية ، وعصر النشأة المكتبية الحقيقية من ناحية أخرى حتى ليقال إن أرسطو كان أول من جمع الكتب . ولم تكن المدرسة الأرسطاطاليسية التى أنشئت حوالى سنة ٣٣٥ ق. م. مدرسة بالمعنى الذى يفهم من تلك الكلمة فى أيامنا هذه وإنما كانت مركزاً للبحث العلمى بمفهوم العصر الحديث . فنحن نعرف أن أرسطو بدأ حياته باحثاً فى علم الحيوان ثم اتجه بعد ذلك الى الفلسفة والميتافيزيقا . ولسنا نستطيع أن نتصور معهداً للبحوث بغير مكتبة تمده بوسائل الدرس وأدوات المعرفة

وإذن فقد كان لمدارس الفلسفة اليونانية مكتباتها ، وكانت هذه المدارس هى نقطة البدء فى تاريخ المكتبات الأوربية . ولكن هذه المكتبات لم تكن مفتوحة للجماهير وإنما كانت مكتبات متخصصة بتعبير العصر الحديث ، وكانت مقصورة على الدارسين والباحثين .

وكما كان لمصر شرف السبق الى اختراع الكتابة ، فقد كان لها أيضا شرف السبق إلى إنشاء أول مكتبة عامة ، ونعنى بها مكتبة الإسكندرية .

والحديث عن تلك المكتبة الرائدة حديث يمكن أن يطول ، فحسبنا الآن أن نقف عندها وقفة قصيرة نستجلى فيها أهم سماتها وأبرز ملامحها .

يقول استرابو Strabo إن أرسطو هو صاحب الفكرة ، وإنه هو الذى علم المصريين فن تنظيم الكتب ، وان فكرة إنشاء مكتبة قد صادفت هوى فى نفس بطليموس الأول فسارع الى تنفيذها ، وكانت نواتها مجموعة كتب المدرسة الأرسطية التى نقلها ديمتريوس الفاليرى (٣٥٠-٢٨٠ ق.م.) بحراً من أثينا الى الإسكندرية(١)

(1) Encyclopaedia of Librarianship : 203 and The Oxford Clässical Dictionary : 503.

وفى عهد ثانى البطالسة ازدهرت المكتبة ازدهاراً رائعاً حتى نسبها بعض المؤرخين إليه. ومهما يكن من شيء فمن المؤكد أن المكتبة قد وجدت منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، ومنذ سنة ٢٨٥ ق م. على وجه التقريب.

ولم يكد يمضى خمسون عاماً على إنشائها حتى تمخضت مكتبة الإسكندرية عن مكتبة أخرى أصغر منها أنشأها ثالث البطالسة فى هيكل السيرابيوم.

وهاتان المكتبتان اللتان تعرفان فى التاريخ باسم مكتبة الإسكندرية ألحقتا بمتحف الإسكندرية الشهير الذى أنشىء بعد سنة ٣١٠ ق م. ببضع سنوات وكانتا مركزاً للبحث العلمى يضم مايقرب من نصف مليون مجلد على خلاف فى الروايات[1] ويقوم عليه رجال من أهل العلم والأدب أمثال كاليماخوس وأبولونيوس الروديسى وأرستارخوس.

وخلال القرن أو القرنين الأولين من تاريخها، كانت رسالة المكتبة تقتصر على جمع التراث القوى لبلاد اليونان وتنظيمه بحيث يكون فى متناول الدارسين والباحثين. ثم لم تلبث أن نهضت بدور إنسانى فى تاريخ المعرفة فأخذت على عاتقها مسئولية ترجمة التراث البشرى من شتى لغات البشر الموجودة فى حوض البحر الأبيض المتوسط وفى الشرق الأوسط والهند إلى اللغة اليونانية وبذلك أصبحت المكتبة مركز إشعاع فكرى للإنسانية كلها.

---

(١) فهناك رواية تقول إنها كانت ٢٠٠،٠٠٠ مجلد، ورواية أخرى تقول إنها كانت ١٠٠،٠٠٠ مجلد عند موت بطليموس الثانى، ورواية ثالثة تقول إنها كانت ٧٠،٠٠٠ مجلد عندما أحرقها قيصر. وهذه الروايات كلها تؤكد كثرة الكتب والمصنفات فى ذلك الوقت. انظر:

Books and Readers in Ancient Greece and Rome : 27

ولقد كان التاريخ أميناً فيما يتصل بهذه المكتبة العتيقة ، فاحتفظ لنا بصورة تكاد تكون كاملة عنها وعن نظامها ، فقد كانت ملحقة بالمتحف ، وكان المتحف تابعاً للقصر الملكى . وكان الملك نفسه هو الذى يتولى اختيار القائمين عليه عندما كانت مصر تحت سيطرة اليونان فلما احتلها الرومان فى القرن الأول الميلادى خضع المتحف للقيصر مباشرة .

وقد تتابع على إدارة المكتبة منذ نشأتها قوم امتازوا بالثقافة الواسعة والعلم الغزير أولهم زينودوتس ومن بعده أبولونيوس الروديسى وإراتوسثينس وأرسطوفان البيزنطى الذى يقال إنه كان يعرف كل محتويات المكتبة وإن معرفته بالشعر اليونانى كانت تمكنه من أن يحقق نسبة النصوص إلى مؤلفيها ، وعرف الملك عنه ذلك فرقاه إلى منصب المدير[1] . وكان يعاون هؤلاء فى مهمتهم جماعة من كبار العلماء والباحثين وتحت أيديهم عدد كبير من النساخين .

ولقد واجهت المكتبة لأول مرة فى التاريخ مسئوليتين خطيرتين :

أولاهما : تتصل بالتراث الإنسانى نفسه ، فقد كانت هناك نصوص كثيرة يعوزها التحقيق والدراسة وربما إعادة كتابتها بطريقة يسهل الرجوع إليها . ومن أجل هذا استعانت المكتبة بعدد كبير من الأساتذة والباحثين لينهضوا بهذا العبء . ولم تكن مهمتهم فى الحقيقة هينة يسيرة ، إذ لم تكن تقتصر على مجرد تصحيح النصوص وإنما تعدت ذلك إلى تنظيمها وتقسيمها إلى لفائف على حسب طول النص أو قصره .

---

(1) The Origins of the English Library : 33

وكان الكتاب والنساخون فى العصر القديم لا يستعملون علامات الترقيم ومن ثم كانت قراءة النصوص تتطلب مشقة وعسراً شديدين . وكان لابد للمكتبة الرائدة أن تواجه هذه المشكلات وأن تعمل على حلها . ومن أجل هذا استعانت بعدد كبير من الأساتذة والباحثين الذين لم تقتصر مهمتهم على مجرد تصحيح النصوص وتقويمها واستعمال الفواصل بين جملها[1] ، وإنما تعدت ذلك إلى تنظيمها إلى لفائف على حسب طول النص أو قصره . فالإنسانية فى تاريخها السحيق لم تعرف الكتاب بالصورة التى نعرفه بها اليوم ، وإنما عرفته فى أول عهدها لفائف من البردى . ولم يكن يمكن للفافة واحدة أن تستوعب نصاً من النصوص الطويلة ، فكان لابد من تقسيم تلك النصوص على عدد من اللفائف متوسطة الحجم كى يسهل استعمالها ويتيسر حفظها وصيانتها .

ولقد حملت مكتبة الإسكندرية على عاتقها هـــذه المسئولية . فالإلياذة والأوديسا لهوميروس أخرجهما زينودوتس فى ٢٤ كتاباهى التى نعرفها بها اليوم ، وأعمال بندار حققها أرسطوفان البيزنطى وأخرجها فى ١٧ كتابا ، كما أخرج نسخاً موثقة من مسرحيات يوربيدس وأرسطوفان ومحاورات أفلاطون[2] . وكلمة « كتاب » هنا ينبغى ألا تؤخذ بمفهومها العصرى وإنما بمفهوم القرن الرابع قبل الميلاد ، أى أنها تعنى لفافة من لفائف البردى .

---

(١) كان أرسطوفان البيزنطى أول من أضاف علامات الترقيم punctuation marks والـ accents للنصوص اليونانية التى كانت مكتبة المتحف تقوم بنسخها.
انظر : The Origins of the English Library : 118

(٢) The Oxford Classical Dictionary : 94

أما المسئولية الثانية التى تصدت لها مكتبة الإسكندرية فكانت حمل أول ثبت بالتراث القومى لليونان . ولقد ارتبطت هذه المسئولية بشخصية كتب لها الخلود فى تاريخ مكتبة الإسكندرية وهى شخصية كاليماخوس Callimachus .

وأول ما يلفت النظر فى كاليماخوس أنه كان إنسانا غريبا حقا . وربما كانت هذه الغرابة فى حدّ ذاتها سراً من أسرار خلوده على مر الأيام .

ولد كاليماخوس حوالى سنة ٣١٠ ق م ، وتلقى تعليمه فى مدرسة الفلسفة التى أقامها أرسطو فى أثينا . وبدأ حياته معلما فى ضاحية من ضواحى الإسكندرية ثم ترك مهنة التدريس ليلتحق بمكتبة الإسكندرية .

ولقد كان صاحبنا شاعراً فذا ، وكان ظريفا مهذبا ، وكان ذا ثقافة واسعة وعميقة بأدب قومه ، ولكنه كان كثير الفخر والاعتزاز بعلمه وثقافته حتى لقد دفعه غروره هذا إلى أن يحشو شعره بكل ما توافر لديه من ألوان الثقافة والمعرفة (١)! وكان إلى جانب هذا شديد الحساسية مختل الأعصاب حاد اللسان ، ولعل ذلك يرجع إلى نشأته الفقيرة البائسة وإلى ما تعرض له فى حياته من ضغوط لعل أبسطها أنه على الرغم من كل مواهبه ونبوغه لم يرق فى يوم من الأيام إلى منصب مدير المكتبة مع أن تلاميذه أمثال أبولونيوس الروديسى وإراتوستينس وأرسطوفان البيزنطى قد وصلوا إلى هذا المنصب .

ولقد تفاعلت هذه العوامل جميعا وأنتجت تلك الشخصية الطريفة الثائرة التى تضع نفسها فى كفة والناس كلهم فى كفة أخرى . استمع إليه يقول :

---

(١) انظر : شعراء الإسكندرية : ٧٣

« إنى أبغض الأغانى العتيقة التى يتغنى بها النـاس جميعـا ، وأنفر من شعبية الجماهير ، وأتحاشى الطرق التى يسلكها عامة النـاس وأتجنب ألوان المسرات التى يتهافتون عليها »[1] .

فهذا القول يصوره لنا رجلا فريداً فى نوعه ، قد وضع نفسه بمعزل عن الناس أو إن شئت الدقة قلت إنه وضع نفسه فوق الناس جميعا .

على أن الذى يهمنا من كاليماخوس الآن هو الدور الذى لعبه فى تاريخ مكتبة الإسكندرية ، فقد كان مسئولا عن الفهرس وأسند إليه القيام بجمع سجل حافل للتراث اليونانى، ويقال إنه استطاع أن يشرف على تسجيل خمس ما احتوته المكتبة (وهو ما يقدر بنحو تسعين ألف لفافة) فى فهرس مصنف لا يقتصر على ذكر أسماء الكتب وإنما ينص على بداياتها ويذكر تفاصيل عن حياة مؤلفيها[2] . وبعد وفاة كاليماخوس حوالى سنة ٢٤٠ ق . م خلفه تلميذه أرسطوفان البيزنطى ثم أرستارخوس فأتما عمل أستاذهما .

وترجع قيمة ذلك السجل الثقافى إلى أن الرجل كان واسع الاطلاع على الأدب اليونانى وتاريخه وكان ملماً بالعقائد الدينية عند قومه إلماماً كبيراً . وقد أعانته هذه الثقافة الواسعة على النهوض بعمله على خير وجه ، وعلى سدّ الثغرات التى تكشفت له أثناء العمل . كما أن الدقة الكبيرة التى تحراها كاليماخوس فى عمله أكسبته قيمة تاريخية عظيمة .

والشىء الذى لا جدال فيه أن كاليماخوس الأديب الذى لم يستطع أن يرق

---

(1) The Origins of the English Library : 29 .

(2) The Origins of the English Library : 32 — 34

إلى إدارة متحف الإسكندرية ومكتبتها قد أفلح فى أن يخلد اسمه بين أعلام التاريخ شاعراً ممتازاً وأديبا عالما وشخصية فريدة ، واستطاع أن يخط على صفحة الزمن أول خطوط علم الببليوجرافيا .

ولقد كان الدور الذى لعبته مكتبة الإسكندرية فى تاريخ الحضارة الإنسانية خطيرا حقا . فقد حفظت لنا تراث اليونان القدماء ، كما حفظت لنا ترجمات للتراث الإنسانى فى شتى لغات البشر . والفضل فى ذلك يرجع إلى العلماء والباحثين الذين كانوا يعملون بها ، كما يرجع إلى المكان الذى تحتله الإسكندرية ، بل وتحتله مصر بأسرها فى خريطة العالم ، فقد حنا جو مصر الدافئ وحنت رمالها الجافة على لفائف البردى التى ضمت بين طياتها ذخائر التراث الإنسانى ، فاستطاعت هذه اللفائف أن تخلد على مر السنين والأيام . وما زالت الاكتشافات تطلعنا كل يوم على جديد من هذه اللفائف التى طمرت فى جوف أرض مصر آلاف السنين .

ولكن مكتبة الإسكندرية التى ظلت منهلا عذبا يرتوى منه رجال الفكر والأدب فى العصور القديمة ، والتى حفظت للإنسانية تراثها ، ما لبثت أن امتدت إليها يد الانسان بالخراب والدمار ، ولم تلبث هذه الكنوز التى فتحت أبوابها للباحثين فى ميادين العلم والمعرفة ، لم تلبث أن استبيحت حرماتها ودمرت مقتنياتها تدميرا .

ولقد تضاربت القصص حول نهاية هذه المكتبة الرائدة التى عاشت عصرها الذهبي أيام البطالسة الأربعة الأُول وامتدت بها الحياة لمدة قرون فى عهد الرومان فقيل إنها أحرقت سنة ٤٧ ق . م . عندما أضرم قيصر النار فى مدينة الإسكندرية ولكن هذه الرواية لم تسلم من الشك والتفنيد ، ولعل عنصر الحقيقة فيها أن الحريق قد أصاب المكتبة بخسائر ولكنها كانت يسيرة على أى حال ، وقد عوضتها تلك

الهدية الضخمة من الكتب التى يقال إن أنطونيو قدمها إلى كليوباترة والتى بلغت ٢٠٠٫٠٠٠ لفافة بردى كان قد استولى عليها من مكتبة برجاموس .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن المكتبة والمتحف خربا على يد أورليان فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، وأن مكتبة السيرابيوم عاشت بعد المكتبة الأم ما يقرب من مائة عام ثم دنت نهايتها على يد ثيوفيلس الأنطاكى بطريرك الإسكندرية الذى خربها فى سنة ٣٩١ على اعتبار أنها قلعة التراث الوثنى .

ويزعم قوم أن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية إبّان الفتح الإسلامى لمصر ، ويمضى هؤلاء فى دعواهم حتى ليزعمون أن إحراق الكتب فى حمامات الإسكندرية قد استغرق ستة أشهر . بل إن منهم من يردد ما قاله درابر من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أرسل إلى قائد جنده عمرو بن العاص يطلب إليه إحراق المكتبة لأنها إن كانت كتبها متمشية مع تعاليم الإسلام فقد أغنى الله المسلمين عنها بكتابه الكريم ، وإن كانت تخالف تلك التعاليم فلا حاجة بهم إليها[1] .

وعلى الرغم من أن هذه القصة قد ترددت فى بعض الكتب العربية والأجنبية إلا أن معظم المؤرخين والباحثين ، سواء منهم العرب وغير العرب ، يجنحون إلى الشك فيها وإنكارها على أساس أن أول من ذكرها من العرب — وعنه أخذ الغربيون — هو أبو الفرج الملطى وهو — كما يقول جيبون فى كتابه «سقوط الإمبراطورية الرومانية» — «أجنبى غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمائة سنة ، ويوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحى

---

(١) فى كتابه «عبقرية عمر» عرض العقاد كل ما قيل حول هذا الموضوع وانتهى إلى تكذيب القصة .

وكلاهما مصرى وأقدمهما البطريق يوتيخيوس الذى توسع فى الكتابة عن فتح الإسكندرية»[1].

وفضلاً عن ذلك فإن كثيرا من المؤرخين يؤكدون أن يوحنا (فيلوبونس) النحوى الذى يقال إنه قابل عمرو بن العاص وكلمه فى شأن المكتبة ، والذى ذكره أبو الفرج الملطى فى روايته تأكيداً لأقواله ، قد مات قبل فتح العرب لمصر واستيلائهم على الإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة . وحتى ابن النديم ، الذى قال إنه عاش حتى فتح مصر وكان مقربا من عمرو بن العاص ، لم يذكر شيئا عن المكتبة. فإذا أضفنا إلى ذلك ما قاله الدكتور ألفرد بتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» من أن معظم كتب ذلك العصر كانت من الرق وهو لا يصلح للوقود ، وأن العرب لو أرادوا إحراق ما ليس مكتوبا على الرق لما تجشموا مشقة نقله إلى الحمامات ولما كفى ذلك القدر لإشعال أربعة آلاف حمام لمدة ستة أشهر كما تقول الأسطورة[2] ، وما ذهبت إليه روث ستيلهورن ماكينزن من أن عملية نقل الكتب إلى الحمامات — فضلا عن مشقتها وتكاليفها — تسبب تأخيرا وتتيح الفرصة لتهريب المخطوطات القيمة[3] ، وإذا وضعنا فى الاعتبار تكريم الإسلام للعلم والعلماء وتحريم فقهائه إحراق الكتب الدينية التى يقتنونها من المسيحيين واليهود ، وإباحة ... الكتب الدنيوية على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين ، أقول : إذا أضفنا ذلك كله إلى ما قاله جيبون وكازانوفا ورينودوت وغيرهم من المستشرقين والمؤرخين العرب

(1) The History of the Decline & Fall of the Roman Empire, vol. V, p. 453

(2) The Arab Conquest of Egypt: 403 .

(3) The American Journal of Semitic Languages, Vol. 51, (1935), p.118 .

أدركنا أن العرب حينما فتحوا مصر لم يدمروا ما كان قد تبقى من مكتبة الإسكندرية وإنما حفظوه وديعة غالية حتى كانت حركة الترجمة فى عصر بنى العباس ، فترجم هذا التراث إلى لغة العرب ، ولم تلبث هذه الوديعة أن أصبحت ميراثا للإنسانية كلها حينما بدأت أوربا تتصل بالشرق العربى فى القرن الثانى عشر وتترجم إلى لغاتها هذه الآثار اليونانية التى كانت قد عربت لمدة قرون مضت .

تلك هى مكتبة الإسكندرية التى حضنت تراث الأمة اليونانية بل تراث البشرية كلها فى تاريخها السحيق ، وكانت فى حد ذاتها بداية رائعة لتاريخ المكتبات الغربية (على اعتبار أن الإسكندرية كانت فى تلك المرحلة التاريخية مدينة يونانية وكانت تتربع على عرش الفكر الإغريقى) ، وقفنا عندها وقفة ربما تكون قد طالت ولكن الحقيقة أنه على الرغم من انتشار الكتب والمكتبات خلال القرون الثلاثة السابقة للميلاد فى مراكز الثقافة اليونانية التى انتشرت فى ربوع الشرق القديم فى مقدونيا وأنطاكية ورودس وكوس وبرجاموس والقدس ، أقول : على الرغم من انتشار الكتب والمكتبات العامة والخاصة فى هذه المراكز الهلينية فإن أياً من مكتبات تلك الحقبـــة لم يرق إلى مستوى مكتبة الاسكندرية لا فى الحجم ولا فى الدور الإنسانى الكبير الذى نهضت به فى تاريخ الحضارة البشرية .

ولكن من بين هذه المكتبات جميعها مكتبة ولدت فى شرق البحر الأبيض المتوسط بعد مكتبة الإسكندرية بما يقرب من قرن من الزمان وأتيح لها أن تقف منها موقف المنافس وإن لم تلحق بها فضلا عن أن تتفوق عليها ، ونعنى بها مكتبة برجاموس التى أنشأها الملك أتالوس الأول Attalos I (٢٦٩ – ١٩٧ ق م) وازدهرت فى عهد خليفته يومينس الثانى Eumenes II (١٩٧ – ١٥٩ ق.م) وتولى

إدارتها Crates of Mallos ثم تلاه غيره من العلماء الذين اسند إليهم العمل في هذه المكتبة . وقد أظهرتنا الكشوف الأثرية التى عثر عليها فى أواخر القرن التاسع عشر على أن المكتبة كان بها أربع قاعات يتصل بها رواق يتخذ مكاناً للقراءة[1] لأنه يحمى من التقلبات الجوية من حرّ وقرّ ، ولأن القراءة فى ذلك الزمان الغابر كانت قراءة جهرية بصوت مسموع ، ولم يكن هذا النوع من القراءة يطاق فى قاعة محكمة الجدران مغلقة الأبواب كقاعات العصر الحديث .

وككل مكتبات العالم القديم نشأت تلك المكتبة فى رحاب معبد دينى ، وكانت تضم مجموعة كبيرة من لفائف البردى قيل إنها بلغت سبعة عشر ألفا ، وقيل بل كانت مائتى ألف عندما أهداها أنطونيو إلى كليوباتره سنة ٤١ ق . م [2] .

ومن الطريف أننا ننظر فنرى فى ذلك التاريخ البعيد تنسيقاً للعمل الببليوجرافى بين المكتبتين العظيمتين فى ذلك الحين ، فتختص مكتبة الإسكندرية بالشعر والأعمال المسرحية ، وتختص مكتبة برجاموس بالنثر والفنون الجميلة .

ولا نكاد نصل إلى مطلع القرن الثانى الميلادى حتى نرى فى أثينا مكتبتين عامتين كبيرتين : أولاهما تلك التى أنشأها الإمبراطور الرومانى تراجان Trajan (Marcus Ulpius Traianus) سنة ١٠٠م والتى يتضح من أحد النقوش التى عثر عليها أنها كانت تفتح أبوابها منذ الساعة الأولى من الصباح حتى السادسة ، أى من الشروق إلى الظهيرة ، وأن الكتب لم تكن تعار خارجها[3] .

---

(1) The Care of Books : 10—11
(2) The Oxford Classical Dictionary : 503
(3) Encyclopaedia of Librarianship : 203

أما المكتبة الثانية فقد أنشأها الإمبراطور هادريان Hadrian (Poblius Aelius Hadrianus) الذى خلف تراجان على العرش فى سنة ١١٧ ويُظَن أنها كانت تشغل خمس قاعات كاملة[1] .

وعلى مدى ما يقرب من عشرة قرون ، قامت المكتبات اليونانية وعلى رأسها مكتبة الإسكندرية بالحفاظ على تراث اليونان حتى انتقل إلى القسطنطينية . وخلال هذه الحقبة من التاريخ شارك الرومان بنصيبهم فى التراث الإنسانى وفى الحفاظ عليه وتلك قصة نفرد لها الفصل القادم .

(1) The Care of Books : 16—18

الرومان

والحديث عن المكتبات الرومانية كالحديث عن المكتبات فى أى بلد من بلاد العالم يرتبط بالحديث عن التعليم والمتعلمين ، لأن المكتبات لا توجد إلا حيث توجد نهضة فكرية تتمخض عن نتاج مكتوب . وقبل القرن الثالث قبل الميلاد لم يكن هناك تراث لاتينى ، وإنما أخذ هذا التراث طريقه إلى الوجود خلال القرون الثلاثة التى سبقت مولد السيد المسيح عليه السلام كنتيجة لوقوع إيطاليا تحت تأثير الثقافة اليونانية التى بدأت كتبها وآثارها الفكرية تتدفق على بلاد الرومان منذ القرن الثالث . ومن أجل هذا ننظر فنرى الأدب اللاتينى فى القرن الثانى وقد تأغرق — إن صح هذا التعبير — فهو ينسج على منوال الإغريق ويحاكيهم دون أصالة أو إبداع .

ولقد لقى هذا الاتجاه إلى الأدب الإغريقى والانغماس فيه معارضة شديدة من الرومانيين المحافظين لدرجة أن رجلا مثل شيشرون يقول بعد ذلك بقرن من الزمان : « إنه لمن العجيب أننا معشر الرومانيين تعلمنا فى أثينا وقرأنا شعراء اليونان وحفظنا شعرهم عن ظهر قلب ثم ندعى بعد ذلك أننا علماء باحثون »[1] .

وعلى عكس اليونان الذين كان نظام التعليم عندهم يرتكز على المدرسة والمعلم

(١) انظر : The Origins of the English Library : 40

وعلى الحياة الاجتماعية التى يحياها التلاميذ خارج بيوتهم ، كان الرومان يعلقون أهمية كبيرة على دور الأب فى التعليم . ومن أجل هذا كان البيت الرومانى يقوم بوظيفة تربوية وتعليمية فى وقت واحد . والنتيجة الطبيعية لذلك أن تظهر المكتبات الخاصة فى المنازل قبل ظهور المكتبات العامة التى تنشئها الدولة بوقت طويل .

ولقد بدأت هذه المكتبات الخاصة تظهر فى بلاد الرومان وتصبح سمة بارزة من سمات الحضارة الرومانية منذ منتصف القرن الثانى قبل الميلاد وحتى أوائل القرن السادس الميلادى كنتيجة لاهتمام الطبقة المثقفة الرومانية بالأدب اليونانى وإقبالها عليه ولعل أقدم مكتبة خاصة ذات أهمية هى تلك التى أنشأها لوكولوس Lucullus (١١٧ – ٥٦ ق . م) والتى أباحها لكل من يحتاج إليها من العلماء والباحثين [١] . وفى نفس الوقت تقريباً كان لشيشرون (١٠٦ – ٤٣ ق م .) ثلاث مكتبات خاصة إحداها فى روما والأخرى فى Antium [٢] والثالثة فى Tusculum [٣] كما يتضح من رسائله [٤] .

ومنذ عصر شيشرون أصبحت المكتبات الخاصة شيئاً أساسياً بالنسبة لكل دارس أو معلم أو كاتب أو مسئول ، وأصبحت كل مكتبة من هذه المكتبات تقتنى ثمرات الفكر اليونانى والرومانى على السواء .

---

(١) Books and Readers in Ancient Greece and Rome : 91 & The Care of Books : 21.

(٢) ميناء صغير بغرب إيطاليا .

(٣) مدينة على بعد ١٥ كيلو متراً جنوب شرق روما .

(٤) The Origins of the English Library : 40

ومع بداية عهد أغسطس (٦٣ق م — ١٤م) ننظر فنرى الكتب اليونانية وقد غمرت أسواق روما ، ونرى المكتبات الخاصة وقد انتشرت بين الناس حتى أصبح لكل شاعر أو أديب من أدباء العصر مجموعته الخاصة . فشاعر مثل أوفيد Ovid (٤٣ ق . م — ١٧ م) كانت الكتب بالنسبة له أمراً حيوياً حتى انراه يضيق بالنفى إلى Tomis لأنه باعد بينه وبين كتبه كما يتضح من شعره الذى قاله فى المنفى. وحينما ينعى كاتولوس Catullus (٨٤ — ٥٤ ق . م .) أخاه وهو فى Verona نراه يقول إن الحزن قد عقد لسانه ، وإن ما يحزنه ويعقد لسانه أيضا أنه قد خلف كتبه من ورائه فى بيته بروما ولم يصطحب معه إلا صندوقا واحداً صغيراً ، والتأليف يحتاج إلى عدد من المصادر كثير[1] . وعندما ضاق هوراتيوس Horatius (٦٥ — ٨ ق م) بصخب روما نراه يفر إلى ضيعته على تلال Sabine مصطحبا معه كتبه ومتمنيا أن ينفق بقية حياته لا يرى غير الكتب وما يسد رمقه من الطعام[2] .

وخلال القرن الأول تكثر المكتبات الخاصة وتتضخم لدرجة ملفتة للنظر ، فقد ذكر Probus فى ترجمة بيرشيوس Persius (٣٤ - ٦٢م) أن مكتبته كانت تضم سبعمائة مجلد ، ونص بلينى الأكبر (٢٣ — ٧٩ م) على أنه عندما ألف كتابه فى التاريخ الطبيعى Historia Naturalis رجع إلى ألفى مجلد وجمع عشرين ألف معلومة من مائة مؤلف . وأكبر الظن أن معظم هذه المصادر كانت فى مكتبته الخاصة . أما بلينى الأصغر (٦١ — ١١٢ م) فإنه يصف لنا مكتبته الخاصة فيقول إنها تخذ صوانا فى الحائط يحتفظ فيه بالكتب الأثيرة عنده والتى يحب أن يعاود قراءتها . وكان

(1) The Origins of the English Library : 41.
(2) Epistles, I.

Epaphroditus of Chaeronea عبدا وتلميذاً لأحد العلماء السكندريين فى القرن الأول وبعد حصوله على حريته عين مدرسا بروما حيث جمع مكتبة من ثلاثين ألف كتاب كما يقول Suidas [1] .

ومن الطريف أننا نجد المهندس المعماري الروماني فيتروفيوس بولليو Vitruvius Pollio ينصح بأن تكون واجهات البيوت إلى الشرق كي يدخلها ضوء الصباح الباهر ، ويشع فيها الدفء فلا تفسد الرطوبة الكتب المطمورة فى أوراق البردي[2] .

ولكن الصورة المشرقة للمكتبات الرومانية الخاصة لم تكن تخلو من جوانب معتمة . فمع نهاية القرن الأول الميلادي كان الجيل المثقف الذى قامت على أكتافه النهضة الرومانية والحضارة الرومانية فى طريقه إلى الاندثار ، وكان الجيل الجديد من الأجانب الذين وفدوا من اليونان أو آسيا الصغرى ، وكان مستوى التعليم آخذاً فى الهبوط حتى لنقرأ فى كتابات تاكيتوس Cornelius Tacitus سنة ٨٠ م شكوى مريرة من أن العبيد الجهلاء هم الذين أصبحوا يقومون بالتدريس فى المدارس ، وأن البيت الروماني قد بدأ يتخلى عن رسالته التعليمية بالنسبة للأبناء ، وأن الشخصية الرومانية قد بدأت هي الأخرى تتخلى عن كل مقوماتها ومميزاتها[3].
ومع هذه الظواهر الخطيرة ، بدأت الأموال تصب فى حجور الرومانيين نتيجة لنمو التجارة وازدهارها وبدأ القوم ينفقون عن سعة فى تأثيث القصور ، وأصبحت الكتب

---

(1) The Origins of the English Library : 42,50.
(2) The Origins of the English Library : 43.
(3) Dialogus.

فى نظر هذا الجيل الجديد تقتنى لا لتُقرأ وإنما لتُعرض ، لا لقيمتها العلمية وإنما لقيمتها الشكلية ، فنشطت سوق الكتب وانتشرت المكتبات التى تبيعها جديدة ومستعملة فى كل أنحاء روما .

ولقد كان تحول اقتناء الكتب إلى مظهر من مظاهر الثراء وتحول المكتبة إلى قطعة من أثاث البيت يحرص عليها الأغنياء حرصاً لا يقل عن حرص العلماء ظاهرة مرضية لا شك فى هذا ، حتى لقد ظهر من بين الرومانيين أنفسهم من يثور بهم وينعى عليهم هذا الجمود الفكرى وهذا المظهر الكاذب من مظاهر الثقافة . وكان سينكا Seneca هو صاحب تلك الثورة الفكرية فى القرن الأول ، فقد كتب فى De Tranquillitate Animi ينعى على قومه أنهم يجمعون كميات عظيمة من الكتب لمجرد تزيين الجدران ، وأنهم يصنعون قطعاً فاخرة من الأثاث إلا أنهم يضعون فيها كتباً تافهة لا يعرفون منها غير عناوينها ولا يهتمون إلا بجلودها المزخرفة[1] .

ولم يكد ينتهى قرن على تلك الصيحة التى أطلقها سينكا حتى ظهر لوسيان Lucian (١٢٥ — ١٩٠ تقريباً) فاستأنف الهجوم على أولئك الذين يجمعون الكتب بقصد الارتقاء السياسى أو الاجتماعى لا بقصد الثقافة والتعلم .

ولم يتوقف هذا الهجوم بموت سينكا ومن بعده لوسيان ، ولم تنقض تلك الثورة باختفائهما من على مسرح الحياة الرومانية فى ذلك الزمان ، وإنما ظل الهجوم واستمرت الثورة حتى القرن الرابع حيث ظهر أوسونيوس Ausonius الشاعر

(١) انظر : Books and Readers in Ancient Greece and Rome : 82—83.

الذى كان يسخر أشد السخرية ممن يظن أن فى إمكانه أن يصبح أديبا لمجرد اقتنائه كتب الأدب، تماماً كمن يقتنى أدوات الموسيقى ظناً منه أنه بذلك يمكن أن يكون موسيقيا(1) .

وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يعاب على المكتبات الرومانية الخاصة التى ظهرت فى القرون الأولى من تاريخ العالم المسيحى إلا أنها كانت المستودع الأمين الذى احتفظ بالتراث اللاتينى واليونانى وصانه بعيداً عن أيدى العبث والدمار .

فإذا تركنا المكتبات الخاصة إلى المكتبات العامة ومكتبات الدولة فسنلاحظ أنها لم تظهر فى روما قبل عصر أغسطس Augustus ، فإن المكتبة العامة التى أراد يوليوس قيصر أن ينشئها على أوسع نطاق ممكن والتى أوفد Varro (116 — 27 ق . م .) ليجمع لها الكتب من كل مكان لم تخرج إلى حيز الوجود ، ومن ثم كانت أول مكتبة عامة هى تلك التى أنشأها Asinius Pollio سنة 39 ق . م . فى معبد الحرية(2) .

وفى عهد الإمبراطور أغسطس أنشئت فى روما مكتبتان أخريان هما المكتبة البالاتينية Palatine Library التى أنشأها القيصر بجوار معبد أبولو فوق تل بالاتين Palatine Hill بروما(3) والمكتبة الأكتافية Octavian Library (Porticus Octaviae) التى أنشئت فى ميدان الإله مارس Campus Martius

(1) The Origins of the English Library : 42—50

(2) The Care of Books : 12.

(3) تعرضت هذه المكتبة للتدمير ثلاث مرات فى سنة 64 ثم فى سنة 191 وأخيراً فى سنة 363 م .

وسميت بهذا الاسم نسبة إلى أكتافيا أخت الإمبراطور[1] .

ولا نكاد نصل إلى القرن الثانى حتى نجد فى روما ستاً وعشرين مكتبة ترتبط جميعها بالمعابد والهياكل الدينية[2] ، ولعل أهمها وأضخمها وأطولها عمراً مكتبة أولبيا Ulpian Library التى أنشأها الإمبراطور تراجان بجوار معبده ، فقد كانت بمثابة مركز الوثائق الرومانية كما يتضح من كتابات Aulus Gellius وكان فيها قسم يونانى وآخر لاتينى ، وامتدت بها الحياة حتى القرن الخامس .

ومع انتشار الحكم الرومانى والحضارة الرومانية ، انتشرت المكتبات الرومانية فى شمال إفريقيا وأسبانيا وجنوب فرنسا وشرق البحر المتوسط . ولم تكن هذه المكتبات العامة مجرد دور للكتب ، وإنما كانت أيضا ملتقى للدارسين والباحثين .

وخلال القرون الثلاثة الأولى للإمبراطورية الرومانية ظل الوضع المكتبى كما كان من قبل وإن كانت نسبة الكتب قد ازدادت وزادت معها نسبة القراء . ونسبة مكتبات الأفراد من ذوى الجاه وأصحاب الثراء .

ولا نكاد نصل إلى القرن الرابع حتى نرى الإمبراطورية العظيمة تتقلص ونرى المسيحية تنتشر انتشاراً واسعاً حاملة معها أدباً مسيحياً جديداً لم يعد للأدب الوثنى بجانبه مكان . وسرعان ما تقلص هذا الأدب الوثنى وترك مكانه للأدب الجديد .

ولكن لا يمضى طويل وقت حتى نرى المد الإسلامى فى القرن السابع الميلادى يكتسح بلاداً ومناطق شاسعة ، ويبتلع كل ما على وجه الأرض من تراث وثنى

---

(١) تاريخ الكتاب : ٣٠ .

(٢) The Oxford Classical Dictionary : 503.

ومسيحى فيتمثله ويخرجه لنا فى صورة جديدة أثرت الفكر العالمى والحضارة الإنسانية .

* * *

والمحصلة النهائية التى نخرج بها من هذا العرض السريع هى أن المكتبات كانت كثيرة فى الإمبراطورية الرومانية ، ولكنها لم تبلغ ما بلغته المكتبات اليونانية من الأهمية وذلك لسببين رئيسيين :

أولهما أنها لم تكن ترتبط بمؤسسات تعليمية ولا بعلماء مبرِّزين كما كان الحال فى المكتبات اليونانية وبخاصة مكتبة الإسكندرية التى كان يقوم عليها رجال من أئمة الفكر وأساطين العلماء .

والسبب الثانى أنها لم تحدث فى الأدب اللاتينى ما أحدثته مكتبة الإسكندرية فى الأدب الإغريقى ، فلم يوجد بينها مكتبة تقوم بتحقيق التراث اللاتينى وبعمل فهارس تحصيه وتعرِّف به كما فعلت مكتبة الإسكندرية .

ولئن كان الدور الذى قامت به المكتبات الرومانية فى تحقيق النصوص ضئيلا بالنسبة لما قامت به مكتبة الإسكندرية ، فإن الأهمية العظمى لهذه المكتبات تكمن فى أنها احتفظت بالتراث القديم حتى نقله المسلمون إلى لغة القرآن عن طريق السريان . وفى ذلك يقول الأستاذ ريموند إرون فى كتابه « أصول المكتبة الإنجليزية » :

« لقد وصلنا التراث اليونانى عن طريقين : طريق الرومان وطريق العرب . وعلى عكس الرومان لم يكن للعرب غير لغة واحدة ، ومن ثم أداروا ظهورهم عن لغة اليونان اكتفاءً منهم بلغتهم واقتناعا بما فيها من الفضائل والحسنات . وعلى

الرغم من ترحيبهم بمعارف اليونان فى مجالات العلوم والطب ، وعلى رغم تقبلهم لهذه المعارف ، فإنهم لم يتأثروا قط بالروح اليونانية التى تكمن وراءها »[1].

والحق أن الدور الذى قام به المسلمون فى تاريخ الكتب والمكتبات خطير جدا ، فقد نقلوا إلى اللغة العربية كل ما وجدوه من تراث الأمم الغابرة وأضافوا إليه بكل مافى وسعهم من قدرة على الابتكار والتجديد . وظلت هذه المنقولات وتلك الإضافات أمانة فى أيديهم حتى أسلموها إلى أوربا فى القرن الثانى عشر .

وهكذا كان المسلمون موصلا جيداً للثقافة ، وكانت مكتباتهم مستودعاً أمينا لتراث الإنسانية فى أقدم عصورها . فلتكن قصة الكتب والمكتبات عند الأمة الإسلامية موضوع الفصل القادم .

---

(1) The Origins of the English Library: 37.

المسلمون

وتاريخ الكتب والمكتبات عند المسلمين جزء من تاريخ الإسلام والدولة الإسلامية . فقد كان العرب فى جاهليتهم أمة أمية لاتقرأ ولاتكتب ، ولعلهم لم يعرفوا من الكتب فى ذلك الزمان الغابر غير كتب الدين بدليل إطلاق تعبير «أهل الكتاب» فى القرآن الكريم على أصحاب الديانات السماوية الأخرى التى سبقت الإسلام .

ولقد كان القرآن الكريم فتحا جديداً ورائعاً لا فى تاريخ العقيدة فحسب ، وإنما فى تاريخ المعرفة الإنسانية كلها . فهو قد كرم العلم والعلماء وأقسم فى محكم آياته بالكتاب المسطور وبالقلم ومايسطرون . وكلنا يعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم جعل فداء أسرى المشركين من قريش فى غزوة بدر أن يعلّم الواحد منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

ولم يهتم المسلمون بشىء كما اهتموا بتدوين كتاب الله وضبط آياته حتى لايلحن فيه غير العرب من المسلمين . ولهذا كان المصحف الشريف أول كتاب ظهر فى لغة العرب ، ثم بدأت التآليف العربية تخرج إلى حيز الوجود قبل أن ينتصف القرن الأول الهجرى . فابن النديم يحدثنا أن عبيد ابن شرية الجرهمى وفد على معاوية فسأله عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس فى البلاد — وكان استحضره من صنعاء اليمن — فأجابه إلى ماسأل فأمر معاوية أن يدوّن ذلك وينسب

إلى عبيد[1] . ويحدثنا المسعودى أن معاوية كان « ينام ثلث الليل ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكائد فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها »[2] . ويروى ابن سعد فى طبقاته عن هشام بن عروة أن أباه عروة بن الزبير أحرق يوم الحرة (سنة ٦٣ هـ) كتب فقه كانت له ، وأنه كان يقول بعد ذلك : لأن تكون عندى أحب إلى من أن يكون لى مثل أهلى ومالى[3] . ويروى أيضاً عن موسى بن عقبة أنه قال : وضع عندنا كريب (ابن أبى مسلم ، المتوفى سنة ٩٨ هـ) حمل بعير أو عدل بعير من كتب ابن عباس[4] .

ولا نكاد نصل إلى أوائل القرن الثانى حتى نجد الكتب قد كثرت وشاعت بين الناس . فابن خلكان يحدثنا أن ابن شهاب الزهرى (— ١٢٤ هـ) كان إذا جلس فى بيته وضع كتبه حوله واشتغل بها عن كل شىء من أمور الدنيا حتى قالت له امرأته ذات يوم والله لهذه الكتب أشد علىّ من ثلاث ضرائر[5] . ويروى لنا الجاحظ أن الكتب التى كتبها أبو عمرو بن العلاء (٧٠ — ١٥٤) عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرأ (أى تنسك) فأحرقها جميعاً[6] .

ولقد شهد هذا القرن الثانى بداية حركة التدوين التى تمثلت فى جمع الحديث النبوى ومن بعده المغازى والسير على أساس أنها تخدم النص القرآنى وتساعد على فهمه

---

(١) الفهرست : ١٣٢ .
(٢) مروج الذهب : ٥: ٧٨
(٣) الطبقات الكبيرة : ٥ : ١٣٣
(٤) الطبقات الكبيرة : ٥: ٢١٦
(٥) وفيات الأعيان : ٣ : ٣١٧
(٦) البيان والتبيين : ١ : ٣٢١

وتقريبه إلى الأذهان . ثم تتابع التأليف فى مختلف فروع المعرفة، ولم يلبث العرب أن أحسوا بالحاجة إلى تدوين تراثهم وتاريخهم فظهرت كتب اللغة والشعر والتاريخ متأثرة فى أول أمرها بطريقة التأليف فى الحديث ، فكان الإخباريون خاصة لا يسوقون خبراً إلا مشفوعا بسلسلة الأسانيد التى تكشف عن مدى الثقة به والاطمئنان له .

وكذلك شهد هذا القرن البدايات الأولى لحركة الترجمة . فابن جلجل يروى فى طبقاته أن كتاب أهرن بن أعين القس فى الطب قد ترجم إلى اللغة العربية فى عهد مروان بن الحكم وأن عمر بن عبد العزيز أخرجه إلى الناس للانتفاع به (1) . ومعنى هذا أن حركة الترجمة التى بلغت ذروتها فى عصر الخليفة العباسى المأمون قد امتدت جذورها إلى عصر بنى أمية . ولا عجب فى ذلك فقد كانت هذه الحركة وليدة اتصال العرب بعد الفتوح بالحضارات الأخرى كالحضارة اليونانية فى مصر والشام ، والحضارة الفارسية فى إيران ، والحضارة السريانية فى العراق وما بين النهرين .

ولكن كتب القرن الأول وأوائل الثانى لم تكن فى معظمها سوى مباحث مفردة لا يتجاوز كل منها حدود المسألة التى يناقشها إلى ما يتصل بها أو يدور حولها فكان الكتاب بمثابة فصل من فصول كتاب من الكتب الحديثة . ومثال ذلك « مسائل نافع بن الأزرق » التى تنسب إلى ابن عباس والتى نشرها محمد فؤاد عبد الباقى ملحقة بمعجم غريب القرآن .

---

(1) طبقات الأطباء والحكماء : ٦١

وبظهور حلقات الدرس ومجالس الإملاء فى القرن الثانى بدأ التأليف يتجاوز حدوده القديمة ، وأصبح العالم لايلتزم بموضوع محدد وإنما يتعرض لأكثر من موضوع ويتناول أكثر من فن من فنون المعرفة فى المجلس الواحد لأن المحاضرات أو حلقات الدرس لم تكن معدة ولا مكتوبة وإنما كانت تخضع للارتجال والظروف ، وكان سائر الأئمة يتكلمون على حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة ، كما يقول الذهبى[1] .

وقد أدى انتشار مجالس الإملاء وضخامتها إلى ظهور طبقة المستملين الذين يرددون كلمات الشيخ وراءه حتى تسمع جموع الحاضرين التى كانت تبلغ عشرات الألوف فى بعض الأحيان كما كان الحال فى مجلس سليمان بن حرب الواشجى (١٤٠ — ٢٢٤ هـ) الذى يروى الخطيب البغدادى أن أربعين ألف رجل كانوا يحضرونه[2] ومجلس عاصم الواسطى (— ٢٢١ هـ) الذى كان يضم أكثر من مائة ألف شخص[3] .

وكان من ثمار مجالس الإملاء هذه ظهور كتب كثيرة باسم الأمالى أفرد لها حاجى خليفة فصلا خاصا بها فى كشف الظنون ، ومن أشهرها أمالى القالى وثعلب والزجاج وابن دريد وبديع الزمان الهمذانى .

وقد ظل الإملاء هو الطريقة الشائعة فى التأليف طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين حتى لقد كان ينص على الكتب أو أجزاء الكتب التى لا يمليها صاحبها

---

(١) تاريخ الإسلام (مخطوط) : ٩٢ ب

(٢) تاريخ بغداد : ٩:٣٣ (٣) تاريخ بغداد : ١٢:٢٤٨ .

فياقوت يحدثنا عن كتاب «أدب النفوس الجيدة والأخلاق النفيسة» للطبرى فيقول إن المؤلف قطع الإملاء فى بعض الكلام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان ماخرج منه خمسمائة ورقة وكان قد عمل أربعة أجزاء. ولم يخرجها إلى الناس فى الإملاء[1] .

وخلال هذين القرنين ازدهرت حركة التأليف ازدهاراً رائعاً ، يدفعها ويمدها بأسباب الخصب والنماء إقامة صناعة الورق فى بغداد ابتداء من عصر الرشيد ، وظهور طبقة جديدة فى المجتمع العربى تعرف بطبقة الوراقين تمارس صناعة الوراقة وهى — كما يعرفها ابن خلدون — عملية « الانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين »[2] . ففى بغداد وحدها وجدت سوق كبيرة للوراقين كان بها أكثر من مائة حانوت للوراقة فى القرن الثالث الهجرى . ولم تكن هذه الحوانيت مجرد دور للنسخ وإنما كانت مجالس للعلماء والشعراء وملتقى للطبقات المثقفة . وبعبارة أعم نستطيع أن نقول إنها كانت مركزا للنشاط العقلى ومستودعا لكل ما أنتجته العقلية الإسلامية فى شتى فروع المعرفة .

ولولا انتشار الورق وظهور صناعة الوراقة لرأينا حركة التأليف مغلولة الخطى ولما رأينا للإمام الشافعى (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) أكثر من مائة مؤلَّف ، ولجابر ابن حيان (المتوفى سنة ٢٠٠) أكثر من ثلاثمائة كتاب ، ولما استطاع الجاحظ أن يؤلف أكثر من مائة وعشرين كتابا ذكرها فى أول كتابه الحيوان ، ولما بلغت مصنفات الطبيب الفيلسوف محمد بن زكريا الرازى (المتوفى سنة ٣١١) مائتين وخمسين مصنفا .

---

(١) معجم الأدباء : ١٨ : ٧٧

(٢) المقدمة : ٩٦٢ .

والواقع أن المؤلفات كانت قد كثرت فى هذا العصر لدرجة باهرة فقد أحصى ابن النديم للمدائنى (المتوفى سنة ٢٢٥ هـ) ٣٣٧ كتابا فى الأخبـــار ، وللكندى (المتوفى سنة ٢٦٠) ما يقرب من ٢٥٠ كتابا فى الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والفلك والموسيقى والسياسة وغيرها . وذكر أبو العباس ثعلب أنه رأى لإسحق بن ابراهيم الموصلى (المتوفى سنة ٢٣٥) ألف جزء من لغات العرب كلها بسماعه (١) . وروى ياقوت أن الأصمعى خرج مع الرشيد يوما فلقى إسحق فسأله إن كان حمل معه شيئا من كتبه فقال إسحق: حملت ما خف . فسأل الأصمعى: كم مقداره ؟ فرد إسحق قائلا : ثمانية عشر صندوقا. فعجب الأصمعى وقال : إذا كان هذا ما خف ، فكم يكون ما ثقل ؟ فقال : أضعاف ذلك (٢) .

ومن أراد أن يرى الصورة الكاملة لضخامة حركة التأليف العربية فى تلك الحقبة من التاريخ فليرجع إلى فهرست ابن النديم الذى يعتبر فى حدّ ذاته دليلا حيا وملموسا على كثرة المصنفات والمترجمات لدرجة أن يجد أحد الوراقين — وهو ابن النديم — مبرراً لجمعها فى أول عمل ببليوجرافى عربى عرفه التاريخ .

ولم تكن كثرة الكتب وحدها هى التى تلفت النظر فى هذا العصر فقد يقال إنها كانت مباحث صغيرة لا يتجاوز الواحد منها بضع أوراق . ولكن الشىء الذى يسترعى الانتباه حقاً أن كثيراً من هذه المصنفات كان يقع فى مجلدات ضخمة . ويكفى أن نشير إلى تفسير الطبرى وتاريخه وإلى كتاب «الأغانى» لأبى الفرج الأصفهانى وكتاب « مروج الذهب » الذى ألفه المسعودى فى ثلاثين مجلدا ثم اختصره إلى

---

(١) وفيات الأعيان : ١ : ١٨٣ .

(٢) معجم الأدباء : ٦ : ٨ .

الحجم الحالي وكتاب « السماء والعالم » الذي ألفه أحمد بن أبان (— ٣٨٢ ﻫ) صاحب شرطة قرطبة والذي يقول عنه المقرى إنه « مائة مجلد رأيت بعضه بفاس»(١) ، وكتاب « غريب الحديث » لأبي بكر بن الانبارى (— ٣٢٧ ﻫ) الذي يروى ياقوت أنه كان يقع في خمس وأربعين ألف ورقة (٢) . فهذه الكتب التي ذكرناها تعطينا صورة لضخامة المؤلفات في القرنين الثالث والرابع على وجه الخصوص .

وليست كثرة التآليف وضخامتها وحدها هي كل ما يبهرنا في هذا العصر ، فقد كان يقابلها شغف شديد بالقراءة ينبغي أن نسجله بالفخر والإعجاب لأنه هو الذي كان يدفع عجلة التأليف ويمدها بأسباب القوة والانطلاق . ولقد بدأ هذا الشغف مع بداية حركة التأليف والترجمة ، أو إن شئنا الدقة قلنا إنه بدأ قبلها ومهد لها وكان مسبباً لها ودافعا قويا من دوافع وجودها . ويكفي أن نذكر هنا رجلا كالجاحظ الذي كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والبحث ، والذي كان يجلس ومن حوله الكتب قائمة فسقطت عليه في آخر أيامه وهو مريض فلم يستطع أن ينهض من تحتها ومات ضحية هوايته المفضلة .

والحق أن القوم كانوا ينفقون على الكتب بسخاء ، فقد ذكر أبو نعيم الاصفهاني أن أبا جعفر أحمد المديني (المتوفى سنة ٢٧٢ ﻫ) جمع كتبا كثيرة أنفق عليها نحوا من ثلاثمائة ألف درهم(٣) . وفي سنة ٣١٢ توفي محمد بن نصر الحاجب

---

(١) نفح الطيب : ٢ : ٢٥٨ - ٢٥٩ . (٢) معجم الأدباء : ١٨ : ٣١٢ .
(٣) أخبار أصبهان : ٨٥ .

وخلف كتبا بأكثر من ألفى دينار[1] . وكان لأبى بكر الصولى (المتوفى سنة ٣٣٦) بيت عظيم مملوء كتبا [2] . ولما مات أبو جعفر بن الجزار فى النصف الثانى من القرن الرابع وجد له خمسة وعشرون قنطاراً من كتب طبية وغيرها [3] . وبلغ فهرست كتب الصاحب بن عباد (المتوفى سنة ٣٨٥) عشرة مجلدات ، وبلغت كتبه من الكثرة لدرجة أن ما كان عنده من كتب العلم خاصة كان يحتاج لأن يحمل على أربعمائة بعير أو أكثر كما يذكر ياقوت [4] . ولقد تحدث آرثر بوب عن كتب الصاحب فقال بحق إنها « كانت من الكثرة بحيث تعادل ما كان موجودا فى مكتبات أوربا مجتمعة »[5]. ويعبر ديورانت عن روح العصر فيقول:

« لم يبلغ الشغف باقتناء الكتب فى بلد آخر من بلاد العالم — اللهم إلا فى بلاد الصين فى عهد منج هوانج - ما بلغه فى بلاد الإسلام فى القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر . ففى هذه القرون الأربعة بلغ الإسلام ذروة حياته الثقافية ولم يكن العلماء فى آلاف المساجد المنتشرة فى البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة ، وكانت إيواناتها تردد أصداء علمهم وفصاحتهم وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغرافيين والمؤرخين وعلماء الدين يسعون كلهم إلى طلب العلم والحكمة ، وكان بلاط مئات الأمراء يردد أصداء قصائد الشعر والمناقشات الفلسفية . ولم يكن أحد يجرؤ على جمع المال دون أن يعين

---

(١) صلة تاريخ الطبرى : ٨٤ . (٢) المنتظم : ٦ : ٣٥٩ .

(٣) طبقات الأطباء والحكماء : ٩٠ . (٤) معجم الأدباء : ٦ : ٢٥٩ .

(٥) Masterpieces of Persian Art : 151

عالم الآداب والفنون »[1] .

ولكن الشيء الغريب حقاً أن توجد إلى جانب هذا الاهتمام الشديد بالكتب ظاهرة إقبال بعض المؤلفين وجماعي الكتب على إحراق كتبهم بالنار أو غسلها بالماء أو دفنها في باطن الأرض . وقد مرّ بنا أن عروة بن الزبير بن العوام أحرق يوم الحرة كتب فقه كانت له ، وأن أبا عمرو بن العلاء أحرق كتبه عندما تنسك في أخريات أيامه . وهذا ابن سعد يروي في طبقاته أن الحسن البصري أحرق كتبه لما ثقل عليه المرض قبل موته في سنة ١١٠ هـ[2] . ويروي الخطيب البغدادي أن محمد ابن عمر الجعابي (المتوفى سنة ٣٥٥) أوصى بأن تحرق كتبه ، فأحرق جميعها وأحرق معها كتب للناس كانت عنده[3] » . ويذكر أبو حيان التوحيدي أن داود الطائي طرح كتبه في البحر ، بينما مزق سفيان الثوري ألف جزء وطيرها في الريح ، وحمل يوسف بن أسباط كتبه إلى غار في جبل وطرحها فيه وسدّ بابه[4] . أما أبو حيان نفسه فقد قضى على كتبه في آخر أيامه بأن أحرق بعضها وغسل بعضها الآخر[5] .

ولسنا نريد أن نستطرد في ذكر الأمثلة — وهي كثيرة — وإنما نكتفي بأن نلفت النظر إلى تلك الظاهرة الغريبة الجديرة بالاهتمام ، خاصة إذا عرفنا أنها تكررت في تاريخ الكتب عند الغربيين في القرن الثاني عشر الميلادي ، عندما كان

---

(١) قصة الحضارة : ١٣ : ١٧١

(٢) الطبقات الكبيرة جـ ٧ قسم ١ : ١٢٧

(٣) تاريخ بغداد : ٣ : ٣١

(٤) معجم الأدباء : ١٥ : ٢١ — ٢٢

(٥) معجم الأدباء : ١٥ : ١٧

الرهبان فى الأديرة المسيحية يحرقون كتبهم ربما لنفس الأسباب التى كان المسلمون يحرقون كتبهم من أجلها .

فما هى هذه الأسباب ؟ وما هى الدوافع التى تكمن وراء هذا السلوك الشاذ الغريب ؟

يخيل إلينا أن الدوافع إلى مثل تلك التصرفات الغريبة تنحصر فى ثلاثة أشياء هى :

أولا : الخوف من أن تضل هذه الكتب أصحابها . فأبو نعيم يذكر فى « الحلية » أن أحمد بن أبى الحوارى لما فرغ من التعليم جلس للناس فخطر بقلبه يوماً خاطر من قِبَل الحق ، فحمل كتبه إلى شط الفرات وجلس يبكى ساعة ثم قال : « نعم الدليل كنت لى على ربى ولكن لما ظفرت بالمدلول الاشتغال بالدليل محال » وغسل كتبه .

ثانياً : خوف مؤلفى هذه الكتب من تحمل مسئولية ما يكتبون وتوجسهم من أن تحرف كتبهم بعد مماتهم أو أن يساء فهمها فتضل الناس ويتحملون هم أمام الله أوزاراً لا طاقة لهم بها . وهو إحساس لا يوجد عادة إلا عند الأتقياء الصالحين . ومعظم هؤلاء الذين ذكرناهم كانوا من أهل التقى والورع . فأبو عمرو بن العلاء — مثلا — « كان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف » وكان داود الطائى « من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادة » كما يقول أبو حيان التوحيدى[1] وكان محمد بن عمر الجعابى « من أفاضل المحدثين » بشهادة الخطيب البغدادى[2] .

---

(١) معجم الأدباء : ١٥ : ٢١ (٢) تاريخ بغداد : ٣ : ٢٨

ثالثاً : الضن بهذه الكتب على من لا يعرف قدرها ومن لا يستحقها . ولهذا السبب دون سواه أحرق أبو حيان التوحيدى كتبه ، وفى ذلك يقول : «وما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه أنى فقدت ولداً نجيباً وصديقاً حبيباً وصاحباً قريباً وتابعاً أديباً ورئيسا منيبا ،فشق علىّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضى إذا نظروا فيها ويشمتون بسهوى وغلطى إذا تصفحوها ، ويتراءون نقصى وعيبى من أجلها . . . وكيف أتركها لاناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ[1] » .

ولكن تلك الظاهرة الغريبة لا ينبغى لها أن تلفتنا عن الصورة المشرقة لحركة التأليف والترجمة التى بدأت فى عصر بنى أمية ثم نشطت نشاطا رائعا فى عصر بنى العباس ، وآتت ثمارها فى شكل مكتبات ظهرت مع هذه الحركة المباركة وواكبتها فى سيرها وازدهرت بازدهارها .

وإذا كان عصر بنى أمية هو الذى قدّر له أن يشهد بدايات حركة التأليف والترجمة ، فمن الطبيعى أن يكون هذا العصر هو فترة الحضانة فى تاريخ المكتبات الإسلامية ، وأن تبلغ تلك المكتبات رشدها فى العصر العباسى . ولهذا تنظار فنرى أنواعا مختلفة من المكتبات تأخذ طريقها إلى الظهور منذ العصر الأموى ، ولاتلبث شجرة المكتبات الإسلامية أن تتضخم وتمد فروعها إلى شتى أرجاء الدولة تنشر فيها العلم والأدب .

ومن الحقائق الثابتة أن الدولة الإسلامية فى عصورها الأولى قد عرفت كل

---

(١) معجم الأدباء : ١٥ : ١٩

أنواع المكتبات التى تتباهى بها الدول المتقدمة فى العصر الحديث . وكان طبيعياً أن تكون المكتبات الخاصة أقدم هذه الأنواع وأسبقها إلى الظهور ، لأن حب التملك غريزة فطرية فى الإنسان . وحيثما توجد كتابة وكتب ، تجد تلك الغريزة مجالها للانطلاق . ومن أجل هذا ظهرت المكتبات الخاصة فى الدولة الإسلامية منذ وقت مبكر . وقد سبقت الإشارة إلى كتب كل من عروة بن الزبير وعبد الله بن عباس وهما من رجال القرن الأول ، وابن شهاب الزهرى وأبى عمرو بن العلاء وهما ممن عاش فى النصف الثانى من القرن الأول والنصف الأول من القرن الثانى للهجرة .

ونتيجة لانتشار العلم والمعرفة ، ولاتصال المسلمين بالحضارات الأجنبية التى وجدوها فى البلاد التى فتحها الله عليهم ، انتشرت المكتبات الخاصة وعلى رأسها مكتبات الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد كانت مجالس الخلفاء بمثابة حلقات للسمر والمناظرة والمحاضرة ، ولم يكن يمكن لها أن تؤدى وظيفتها بغير كتب ومكتبات . وحين بدأت الدولة الإسلامية تنقسم إلى دويلات منذ القرن الثالث كان كل خليفة ينافس الآخر ويحرص على أن يضم مجلسه خيرة العلماء والأدباء ، وأن تضم مكتبته أنفس المخطوطات ولم يكن الأمراء والوزراء والعلماء والأدباء يقلون عن الخلفاء حرصاً على اقتناء الكتب وتكوين المكتبات الخاصة بهم . ويكفى أن نذكر هنا مكتبة خالد بن يزيد بن معاوية (حكيم بنى مروان) وقد كانت مكتبة علمية بمفهوم العصر الحديث لأن صاحبها كان مولعاً بالكيمياء فحرص على جمع الكتب الكيميائية وترجمة الأجنبي منها إلى اللغة العربية[1] ، وخزانة يحى بن خالد البرمكى التى يحدثنا

(١) الفهرست : ٤٩٧ — ٤٩٨

الجاحظ بأنها كانت تضم ثلاث نسخ من كل كتاب[1]، وخزانة الواقدى (-- ٢٠٧ﻫ) التى بلغت ستمائة قطر[2]، وخزانة عضد الدولة البويهى (— ٣٧٢ ﻫ) التى « لم يبق كتاب صنف إلى وقته فى أنواع العلوم كلها إلا وحصله فيها »، كما يقول المقدسى[3]، ومكتبة ابن العميد التى كانت تحمل على مائة وقر وزيادة[4] والتى كان مسكويه المؤرخ خازنا لها، ومكتبة الصاحب بن عباد (— ٣٨٥) التى يروى ياقوت أنها كانت تضم مائتين وستة آلاف مجلد[5]، وخزانة يعقوب بن كلس (— ٣٨٠) وزير العزيز الفاطمى التى بلغت رواتب النساخين فيها ألف دينار فى الشهر[6].

وفى حلب وجدت مكتبتان خاصتان على جانب كبير من الضخامة هما مكتبة سيف الدولة الحمدانى (٣٠٣ — ٣٥٦ ﻫ) التى جعلها فى عهدة الشاعرين الخالديين، ومكتبة جمال الدين القفطى (— ٦٤٦) التى جمع فيها « من الكتب مالا يوصف، وقصد بها من الآفاق، وكان لا يحب من الدنيا سواها، وكانت تساوى خمسين ألف دينار »، كما يذكر ابن شاكر الكتبى[7]. ومن يرجع إلى « عيون الأنباء » يجد

---

(١) الحيوان : ١ : ٦٠ .
(٢) الفهرست : ١٤٤ ومعجم الأدباء : ١٨ : ٢٨١ .
(٣) أحسن التقاسيم : ٤٤٩ وقد كانت هذه المكتبة فى شيراز .
(٤) تجارب الأمم : ٢ : ٢٢٤ وقد كان ابن العميد وزيراً للبويهيين فى الرىّ فى القرن الرابع الهجرى .
(٥) معجم الأدباء : ٦ : ٢٥٩ . (٦) تاريخ يحيى بن سعيد : ١٦٤ .
(٧) فوات الوفيات : ٢ : ١٩٣ .

عدداً لا بأس به من أطباء سورية ومصر كانت عندهم مكتبات ضخمة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الطبيب الدمشقي موفق الدين بن المطران الذي كان معاصراً لصلاح الدين الأيوبي والذي بلغت مجموعة كتبه ما يقرب من عشرة آلاف مجلد[1] .

وربما لم يشتهر إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية بما فيه من مكتبات خاصة بقدر ما اشتهرت الأندلس التي أسرف أهلها في اقتناء الكتب وتجليدها وزخرفتها حتى وصفت قرطبة بأنها « أكثر بلاد الأندلس كتبا ، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به »[2] . ومعنى هذا أن المكتبات الخاصة قد انتشرت في الأندلس انتشاراً هائلا ، وأنها لم تعد مظهراً من مظاهر العلم بقدر ما هي مظهر من مظاهر الترف والثراء ، وأنها غدت قطعة من الأثاث يحرص عليه ذوو المال والجاه حرصا لا يقل عن حرص أولي العلم والمعرفة .

ومن بين المكتبات الأندلسية الخاصة نكتفي بذكر مكتبة القاضي أبي المطرف عبد الرحمن بن فطيس (٣٤٨ — ٤٠٢) الذي « جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه ، فإن قدر عليه ابتاعه وإلا انتسخه منه

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٢ : ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢) نفح الطيب : ١ : ٣٠٢ .

ورده عليه ، وبلغ من كثرة كتبه أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتبه مدة عام كامل في مسجده ، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية »[1] .

ولم تكن المكتبات الخاصة في الأندلس مقصورة على العلماء والأدباء وإنما امتدت لتشمل نساء الأندلس المشتغلات بالعلم والأدب أيضاً مثل عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم (— ٤٠٠ هـ) التي يذكر ابن بشكوال أنها كانت تملك خزانة علم كبيرة [2] .

ولكن أعظم المكتبات الخاصة التي عرفتها الدولة الإسلامية هي تلك التي ألحقت بقصور الخلافة العباسية في بغداد والفاطمية في مصر والأموية في الأندلس.
فأما المكتبة الأولى فهي « بيت الحكمة » أو « خزانة الحكمة » التي أنشأها الرشيد في أواخر القرن الثاني الهجري ثم ازدهرت في عهد المأمون الذي كان محباً للعلم جماعا للكتب لحرص على أن يجلب إليها التآليف من كل حدب وصوب ، وبعث إلى بلاد الروم وإلى قبرص وصقلية من يأتيه بتراث الأمتين العظيمتين في التاريخ القديم : اليونان والرومان[3] ، وبلغ من حرصه على جمع تراث الأمم القديمة أنه كان يرسل في كل صيف حملات حربية إلى مراكز الثقافة اليونانية في آسيا الصغرى كأنقرة وعمورية عرفت باسم « الصوائف » . ولم يكن هدف هذه الحملات عسكريا وإنما كان هدفا ثقافيا هو جمع التراث القديم .

ولم تكن « خزانة الحكمة » مجرد مخزن للكتب كما قد يتبادر إلى الذهن أو كما

---

(١) الصلة : ١ : ٢٩٨ — ٢٩٩ .
(٢) الصلة : ٢ : ٦٥٤ .
(٣) عيون الأنباء : ٢٦٠ وسرح العيون : ٢٤٢ .

يوحي بذلك اسمها ، وإنما كانت مركزا للثقافة بأوسع معانيها ، فقد كانت منتدى للعلماء وقاعة بحث للدارسين ، وكانت إلى جانب ذلك مركزاً لترجمة الكتب ونسخها . وبتعبير العصر الحديث نستطيع أن نقول إنها كانت مؤسسة للترجمة والنشر ، فقد ضمت كثيراً من المترجمين أمثال حنين بن اسحق ، ومن النساخين أمثال علان الشعوبي . ولعلنا لانبالغ إذا قلنا إنها كانت مسرحا لأكبر حركة ترجمة شهدها التاريخ العربي . فمنذ زمن المأمون أصبحت الترجمة عملا رسمياً للدولة تمارسه من خلال خزانة الحكمة ، ومن ثم ارتبطت بها أسماء كثير من المترجمين نذكر منهم يوحنا بن ماسويه ويوحنا بن البطريق وحنين بن اسحق الذي يروي ابن أبي أصيبعة أن المأمون كان يعطيه زنة ما ينقله ذهبا[1] ، والذي جعله المتوكل على رأسها وجعل تحت يده « كتابا نحارير عالمين بالترجمة ، كانوا يترجمون ويتصفح حنين ما ترجموا » على حد تعبير ابن جلجل[2] .

أما المكتبة الثانية فهي خزانة كتب العزيز الفاطمي الذي ولي حكم مصر من سنة ٣٦٥ إلى سنة ٣٨٦ هـ . وقد كان اهتمام الفاطميين بالكتب والمكتبات شديداً باعتبارها أداة لنشر دعوتهم ، ولهذا أنشأ المعز لدين الله الجامع الأزهر ليكون مدرسة تعلم الناس المذهب الإسماعيلي ، وأنشأ العزيز مكتبته الضخمة هذه بمساعدة وزيره يعقوب بن كلس الذي كان جماعا للكتب . وفي « خطط » المقريزي نجد ذكرا لأربعين خزانة من خزائن القصر وروايات مختلفة عن حجمها . فمن قائل إنها كانت تضم ثمانية عشر ألف كتاب ومن قائل إنها كانت تزيد على مائة وعشرين ألف مجلد

---

(١) عيون الأنباء : ٢٦٠ .

(٢) طبقات الأطباء والحكماء : ٦٩ ونحارير جمع نحرير وهو الحاذق الماهر .

ومن قائل إنها كانت أكثر من مائتى ألف كتاب مجلد ويسير من المجردات[1] . وارتفع أبو شامة بالرقم إلى مليونى كتاب[2] وهى أعداد ضخمة لاشك فى هذا وخاصة إذا نظرنا إليها فى إطار العصر الذى أنشئت فيه المكتبة .

وأما مكتبة الأمويين فى الأندلس فقد أنشأها الحكم المستنصر الذى ولى من سنة ٣٥٠ إلى سنة ٣٦٦هـ والذى كان «جماعة للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله» على حد تعبير المقرى[3] ، فجلب إليها المصنفات من الأقاليم والنواحى وأنفق فى شراء الكتب من الأموال ماضاقت عنه خزائنه حتى بلغت أربعمائة ألف مجلد[4] . وقد روى ابن خلدون أن هذه المكتبة كان لها أربعة وأربعون فهرسة «فى كل منها عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين ليس غير ، وأن الحكم «كان يبعث فى الكتب إلى الأقطار رجالا من التجار ويسرب إليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الأندلس مالم يعهدوه ، وجمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والإجادة فى التجليد فأوعى من ذلك كله .» [5] .

وهذه المكتبات الثلاث : مكتبة العباسيين فى بغداد ، ومكتبة الفاطميين فى القاهرة ، ومكتبة الأمويين فى قرطبة ، كان لها الفضل الأكبر فى حفظ التراث الإسلامى ، بل والتراث الإنسانى القديم مترجما إلى لغة العرب حتى دلت نهاية المكتبة الأولى على يد هولاكو حينما دهم بغداد فى سنة ٦٥٦هـ . أما مكتبة الفواطم

---

(١) الخطط : ١ : ٤٠٩
(٢) كتاب الروضتين : ١ : ٢٠٠
(٣) نفح الطيب : ١ : ٢٤٩
(٤) نفح الطيب : ١ : ٢٥٦
(٥) العبر : ٤ : ١٤٦

فى القاهرة فقد دالت هى الأخرى مع دوال دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم واستيلاء صلاح الدين الأيوبى على الحكم من بعدهم . ولكن نهايتها كانت أسعد من نهاية سابقتها إذ انتقى القاضى الفاضل مجموعة ضخمة من كتبها ووقفها على مدرسته الفاضلية بالقاهرة ، وتبقى خزانة الأمويين فى قرطبة مابقيت الخلافة الأموية قائمة حتى إذا تقوضت دعائم هذه الخلافة واستولى ملوك الطوائف على البلاد ، تبددت كنوزها وتقاسمتها الأطماع والأهواء .

تلك صورة سريعة لأقدم أنواع المكتبات الإسلامية وأكثرها عدداً . ولم تكن هذه المكتبات الخاصة على رغم أسبقيتها إلى الوجود وكثرتها فى العدد هى النوع الوحيد الذى عرفه المسلمون من أنواع المكتبات ، فقد وجد إلى جانبها منذ عصر مبكر أيضاً نوع آخر هو مكتبات المساجد ، فمنذ فجر الإسلام اتخذ المسلمون المسجد مكانا للتعليم بجميع مراحله ، وغنىّ عن القول أن الكتب ركن أساسى من أركان العملية التعليمية لاتقوم إلا به ، ولهذا انتشرت مكتبات المساجد فى الحواضر الإسلامية كدمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وطليطله، وكانت بعض المساجد تضم أكثر من خزانة كالذى يرويه ياقوت من أنه فى سنة ٦١٦ هـ رأى فى جامع مرو خزانتين كبيرتين إحداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين الزنجانى وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد أو مايقاربها ، والأخرى يقال لها الكمالية لايدرى إلى من تنسب[1] . ولم تكن مكتبات المساجد هذه تقتصر على الكتب الدينية وإنما كانت تضم الكتب العلمية والأدبية أيضاً .

---

(١) معجم البلدان : ٤ : ٥٠٩

وإلى جانب المكتبات الخاصة ومكتبات المساجد ، عرفت الدولة الإسلامية في عصورها الأولى نوعاً ثالثاً من أنواع المكتبات يعتبر اليوم مقياساً لرقى الأمم والشعوب وهو المكتبات العامة التي تنشئها الدول لتسهم في زيادة رصيد أبنائها من المعرفة والثقافة ، وقد وجد هذا النوع من المكتبات في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية منذ وقت مبكر جداً ، فصاحب « الأغانى » يحدثنا أن عبدالحكم بن عمرو بن صفوان الجمحى (في العصر الأموى) اتخذ له بيتا جعل فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم ، وجعل في الجدار أوتادا ، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها ثم جرّ دفتراً فقرأه أو بعض مايلعب به فلعب به [1]. ومعنى ذلك أن عبد الحكم هذا كان صاحب فكرة أول مكتبة عامة تفتح أبوابها للجمهور . ولم تكن المكتبة قائمة بذاتها وإنما كانت جزءاً مما يمكن أن نطلق عليه بمصطلح العصر الحديث «ناديا ثقافيا» فيه إلى جانب الدفاتر شطرنجات ونردات وقرقات .

ومما ساعد على كثرة المكتبات العامة وثرائها أن كثيراً من العلماء كانوا يوصون بأن تؤول إليها كتبهم بعد وفاتهم ، كالذى فعله الصاحب بن عباد حين أوقف مكتبته على الرى ، وكالذى يذكره ياقوت من أن مرو كان بها في مطلع القرن السابع الهجرى عشر خزائن للوقف جميعها مجانية والإعارة فيها بدون رهن [2] .

ومن أشهر المكتبات العامة في الدولة الإسلامية تلك التي أسسها سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى في حى الكرخ ببغداد سنة ٣٨٢ هـ كجزء من دار العلم

(١) الأغانى : ٤ : ٥٢

(٢) معجم البلدان : ٨ : ٣٦

وأوقف عليها أوقافا كثيرة وبلغت مجموعة كتبها عشرة آلاف مجلد أغلبها بخطوط أصحابها[1] ، وبلغ من شهرتها أن المؤلفين كانوا يسعون إلى إيداع نسخ من كتبهم بها وهو ماكان يسمى « تخليدا » فى اصطلاح ذلك الزمان . وهذه المكتبة رحل إليها أبو العلاء المعرى وذكر أمناءها فى « رسالة الغفران » وكان الشريف المرتضى أحد القائمين عليها .

وثمة مكتبة أخرى ألحقها بنو عمار بدار العلم التى أسسوها فى طرابلس الشام فى القرن الخامس الهجرى لنشر مذهبهم الشيعى ، وحرصوا على أن يجلبوا لها نوادر الكتب ونفائس المخطوطات حتى قدر عدد كتبها فى إبان مجدها بثلاثة ملايين مجلد وهو رقم لايخلو من مبالغة ولكنه يعكس ضخامة حجم هذه المكتبة التى امتدت بها الحياة حتى أحرقها الصليبيون عندما احتلوا طرابلس فى سنة ٥٠٢ هـ .

والشىء الذى يسترعى الانتباه حقاً أن تلك المكتبات العامة التى عرفتها الدولة الإسلامية فى عصورها الأولى كانت عامة بكل معانى الكلمة ، فقد كانت تقدم خدماتها من إعارة وإرشاد بلا مقابل ، وكان بعضها يمضى إلى ماهو أبعد من ذلك فيقدم لرواده الورق والمداد والأقلام كما كان يحدث فى مكتبتى البصرة ورامهرمز[2] اللتين أنشأهما أبو على بن سوار (المتوفى سنة ٣٧٢) أحد رجال حاشية عضد الدولة البويهى وجعل فيها إجراء على من قصدها ولزم القراءة والنسخ فيها[3] . وربما قدمت بعض المكتبات رواتب لمن يفد إليها ويقيم فيها من طلاب وباحثين كما كان

---

(١) الكامل : ٨ : ٨٨ والمنتظم : ٧ : ١٧٢

(٢) على شاطىء الخليج العربى

(٣) أحسن التقاسيم : ٤١٣

الحال فى مكتبة على بن يحيى المنجم بكركر (من نواحى القُفْص)ومكتبة دار العلم التى أنشأها جعفر بن محمد بن حمدان الموصلى بالموصل ووقفها على كل طالب علم ، لا يمنع أحد من دخولها إذا جاءها غريب يطلب الادب ، وإن كان معسراً أعطاه ورقا ووَرِقا[1] .

ونوع آخر من المكتبات عرفته الدولة الإسلامية وهو المكتبات التى تخدم النظام التعليمى ، ونعنى بها المكتبات المدرسية والجامعية . وقد تأخر ظهور هذا النوع مما سبق ذكره من أنواع المكتبات لأن المسجد كان المدرسة الأولى فى الإسلام ، وكانت المساجد هى المؤسسات التعليمية الوحيدة خلال القرون الخمسة الأولى من تاريخ الإسلام . ويوم كان المسجد يقوم بدور المدرسة والجامعة فى العملية التعليمية ، كانت مكتبات المساجد هى البديل الطبيعى عن المكتبات المدرسية والجامعية . وبقيام المدرسة النظامية فى بغداد فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى لتدريس مذاهب أهل السنة والجماعة ، اعتبر نظام الملك وزير السلاجقة أول من أسس المدارس وجعلها عملا رسمياً من أعمال الدولة . ولم تكن هذه المدرسة مدرسة بالمعنى الاصطلاحى للكلمة وإنما كانت أقرب إلى الجامعة بمفهوم العصر الحديث ، وقد زودت عند إنشائها بمكتبة ضخمة جدد عمارتها الناصر لدين الله العباسى فى سنة ٥٨٩ هـ ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفا لا يوجد مثلها حتى ليقال إن فهرسها كان يضم بين دفتيه ستة آلاف مجلد[2] .

ولم تكن المدرسة النظامية فريدة فى نمطها ، فقد اشتهرت بعدها مدارس كثيرة

---

(١) معجم الأدباء : ٧ : ١٩٣ والوَرِق الدراهم .

(٢) الكامل : ٨ : ٢٢٩ .

نذكر منها المدرسة المستنصرية التى أقامها المستنصر العباسى فى بغداد سنة ٦٣١ هـ لتكون جامعة تحمل اسمه وزودها بخزانة كتب عظيمة قيل إنها بلغت يوم الافتتاح ثمانين ألف مجلد[1] . ونذكر منها أيضاً المدرسة الفاضلية التى أنشأها القاضى الفاضل وزير صلاح الدين بالقاهرة ونقل إليها من خزانة الفواطم مائة ألف مجلد كما يروى المقريزى فى « خططه »[2] .

ولم تقف عناية المسلمين بالكتب والمكتبات عند هذا الحد وإنما تجاوزته إلى أفق آخر لم تبلغه الأمم المتقدمة اليوم إلا بقدَر ، فقد أقاموا المستشفيات وأطلقوا عليها المارستانات (أى بيوت المرضى) ومنها المارستان العضدى الذى أنشأه عضد الدولة البويهى فى القرن الرابع الهجرى فى بغداد ، والمارستان النورى الذى أنشأه نور الشهيد فى دمشق فى القرن السادس ، وزودوا كل واحد من هذه المارستانات بمكتبة ضخمة قد تصل كتبها إلى عشرات الألوف[3] .

ولم تكن مكتبات هذه المارستانات تقتصر على الكتب التثقيفية والترفيهية وإنما كان أكثرها كتباً طبية لأنها كانت مدارس لتعليم الطب .

وهذه الأنواع المتعددة من المكتبات التى عرفتها الدولة الإسلامية منذ عصر مبكر تدل على أن أمة الإسلام قد عرفت للمعرفة قدرها وللمكتبة دورها فى رقى الأمم . ومن أجل هذا ننظر فنرى تلك المكتبات تنال قسطاً وافراً من الاهتمام

---

(١) الحوادث الجامعة : ٥٤ .

(٢) الخطط : ١ : ٤٠٩ .

(٣) فقد روى أن الكتب فى مستشفى قلاوون بالقاهرة بلغت مائة ألف مجلد أغلبها أخذ من دار الحكمة بالقاهرة .

والعناية ، فتتضخم مجموعاتها وميزانياتها ، ويرتفع مستوى أمنائها ، وتتعدد مصادر تزويدها بالكتب ما بين شراء وإهداء ووقف ونسخ ومصادرة . ولم يكن يمكن لهذه المكتبات الضخمة أن تؤدى رسالتها ما لم تكن على درجة عالية من التنظيم . ولهذا وجدت لها فهارس اتخذ بعضها شكل كراسات كما كان الحال فى مكتبة الصاحب بن عباد بالرى ومكتبة الحكم المستنصر بقرطبة ومكتبة المدرسة النظامية فى بغداد ، واتخذ بعضها الآخر شكل قوائم تلصق على كل خزانة بمحتوياتها كما كان الشأن فى مكتبة الفواطم فى القاهرة وخزانة عضد الدولة البويهى التى رآها المقدسى بشيراز ووصف كتبها بأنها كانت « منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب »[1] .

كذلك عرفت المكتبات الإسلامية نظم التصنيف منذ عهد بعيد ، فابن سينا يحدثنا أنه وجد مكتبة بخارى مصنفة[2] ، وصلاح الدين وجد مكتبة الفواطم مصنفة أيضاً[3] . ومكتبات النظامية والمستنصرية كانت هى الأخرى مصنفة[4] .

ومن الأشياء الطريفة ما ذكره المقريزى فى « خططه » من أن ميزانية دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر الله فى القاهرة سنة ٣٩٥ هـ كان فيها بند « لمرمة ما عسى أن يتقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها »[5] . وذلك دليل

---

(١) أحسن التقاسيم : ٤٤٩ .

(٢) أخبار الحكماء : ٤١٦ .

(٣) الروضتين : ١ : ٢٦٨

(٤) الحوادث الجامعة : ٥٤

(٥) الخطط : ١ : ٤٥٩ .

على أن الكتب كانت قد بدأت تتلف من كثرة الاستعمال أو مما يصيبها من آفات وأن العرب قد تنبهوا فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخهم إلى أهمية عمليات الصيانة والترميم . وذلك فى حد ذاته دليل على نضج الوعى المكتبى عندهم منذ أكثر من ألف عام .

* * *

من كل ما تقدم يتبين لنا أن المسلمين كان لهم قدم راسخة ودور رائد فى تاريخ الكتب والمكتبات ، وهو دور ما زال ينتظر من يكشف عن مختلف جوانب العظمة فيه . وإذا كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم قد حملت مشعل الحضارة قرونا متعاقبة أعطت الإنسانية خلالها حصاداً هائلا فى كل مجالات العلم والمعرفة، فلقد كانت المكتبات الإسلامية تواكب هذا المدّ الحضارى وتختزن فى بطونها كل ما فتح الله به على المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها . ولسنا نبالغ إذا قلنا إن المكتبات الإسلامية كانت بحق مرآة تنعكس عليها صورة الحضارة الإسلامية بكل شموخها وجلالها ، وكانت الوعاء الذى احتضن تراث المسلمين بالإضافة إلى ما نقلوه إلى لغاتهم من تراث العالم القديم . ويوم بدأت موجات الغزو الخارجى تدهم العالم الإسلامى من المشرق والمغرب من مغول وصليبيين ، ويوم بدأت الفتن الداخلية تعصف بقلب هذه الأمة ، يومها بدأ بنيانها يتصدع وبدأت مكتباتها تنتكس ويصبح بعضها طعما للنيران وبعضها الآخر أسلابا للمعتدين ، وما بقى منها انزوى وضمر وتحول من مراكز حية لنشر المعرفة إلى مستودعات لحفظ بقايا هذا التراث العظيم .

وعندما سقطت الراية من أيدى المسلمين تلقفها غيرهم ، وبدأت البشرية مرحلة جديدة من مراحل تاريخها هى موضوع الفصل القادم .

الأوربيون

فى الوقت الذى كانت فيه الأمة العربية تحمل مشعل الحضارة وتهتم بالكتب والمكتبات وتعلى من قدر العلم والعلماء، كانت أوربا غارقة فى جهالات القرون الوسطى. صحيح أن المسيحية دين كتابى اعتمد فى انتشاره على الحملات التبشيرية التى تستلزم وجود نصوص دينية مكتوبة. وصحيح أن ظهور المسيحية قد ساهم فى الإكثار من المكتبات وإثرائها بالكتب الدينية على أقل تقدير، ومن ثم انتشرت مكتبات الأديرة منذ العصور الأولى للمسيحية. ففى مصر — مثلاً — ظهرت الأديرة منذ القرن الثانى للميلاد فى مواضع شتى من سيناء إلى بلاد النوبة ومن أشهرها دير سانت كاترين الذى يضم حتى يومنا هذا مكتبة غنية بالمخطوطات الدينية. وفى إيطاليا كان دير مونت كازينو Monte Cassino الذى أقامه البندكتيون من أشهر الأديرة فى أوربا كلها، وكانت مكتبته من أغنى المكتبات. وصحيح أن بعض الحكام ورجال الدين اهتموا بنشر الثقافة وتكوين المكتبات كالإمبراطور قسطنطين الأكبر الذى أراد (فى القرن الرابع الميلادى) أن يجعل من بيزنطة عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية مركزاً حضارياً فأقام بها مكتبة وأكاديمية علمية، والقديس كاسيودور Cassiodore الذى أنشأ ديراً فى ڤيڤاريوم Vevarium بجنوب إيطاليا فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس.

ولكن ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن التعليم كان محدوداً، وأن عدد الذين يقرءون اللاتينية (لغة التأليف والكتابة فى ذلك الزمان) كان قليلاً، وأن القرون

الأولى من تاريخ المسيحية كانت فترة قلاقل سياسية . فقد أغارت القبائل الجرمانية البربرية على إيطاليا ودمرتها تدميرا ، وشن السكسون والايرلنديون هجماتهم الهمجية على انجلترا فى القرن الخامس فخربوها تخريبا ولم تكد تلتقط أنفاسها فى القرن السابع وتظهر فيها مكتبات الاديرة وتجلب لها الكتب من روما حتى تعرضت للخراب والدمار من جديد على يد الدانمركيين فى القرن التاسع .

ولم يكن الإيطاليون والإنجليز هما الامتان الوحيدتان اللتان ضاعت فيهما معالم الحضارة وضيعت فيهما كنوز المعرفة ، وإنما غرقت أوربا كلها فى ظلمات الجهل والامية . ومن حين إلى حين كان يظهر هنا أو هناك أناس معدودون يحملون المشاعل ويعضون بها على الطريق خطوات ثم تسقط من أيديهم فيتلقفها غيرهم ، ويمتد الضوء عبر القرون خافتا باهتا لا يقاس إلى الضوء الباهر الذى كان يغمر آفاق الحياة العربية فى تلك الحقبة من الزمان .

والمحصلة النهائية أنه بينما كانت أوربا تتعرض لفتن سياسية ، كانت المكتبات تنشأ بجوار الكنائس ، وكانت الأديرة المسيحية وبخاصة البندكتية تقوم بجمع الكتب الدينية بطريق الهبات أو التبادل أو الشراء . وكان كثير من الحكام يحرصون على مد تلك الأديرة بالكتب تخليداً لذكراهم ، وطمعاً فى أن يدعو لهم رهبان تلك الأديرة عند كل صلاة فينالوا ثواب الله وغفرانه .

وإلى جانب كتب الصلوات كانت تلك الأديرة تقتنى ماتيسر لها من كتب المنطق والقانون والنحو ، وربما بعض الكتب العلمية وبعض النصوص القديمة. وكان فى كل دير منسَخ (أى مكان للنسخ)مهمته نسخ هذه الكتب وعمل مختصرات لها . وحينما بلغت الأديرة ذروة نشاطها التعليمى فى القرن الثانى عشر ،

لم تكن تلك المناسخ تقصر مهمتها على كتب الصلوات وإنما مضت تنسخ إلى جانبها الكتب الوثنية التى خلفها قدماء اليونان والرومان .

ولكن مكتبات الأديرة هذه — على رغم أهميتها — لم تقم بدور خلاق فى تاريخ الكتب والمكتبات ، وإنما اقتصرت رسالتها على مجرد الحفاظ على ما كانت تضمه من كتب التراث .

وقبل أن يبلغ القرن الثانى عشر نهايته كانت أوربا قد فتحت عيونها على التراث العربى والتراث اليونانى المترجم إلى لغة العرب ، فرحل الدارسون والعلماء الأوربيون إلى أسبانيا طلبا لتعلم لغة العرب التى كانت بحق لغة الفكر والثقافة فى ذلك العصر . وأسس ريموند أسقف طليطلة من سنة ١١٢٦ إلى سنة ١١٥١ ميلادية مدرسة للترجمة حملت على عاتقها مسئولية نقل أهم المؤلفات العربية واليونانية المعربة إلى اللغة اللاتينية . وكان من نتائج حركة الاستعراب هذه أن ترجمت أمهات كتب العلم والفلسفة والعقائد ، فترجمت كتابات أرسطو فى الفيزياء والأخلاق وما وراء الطبيعة ، وترجمت بعض كتابات أفلاطون وإقليدس وبطليموس وجالينوس وإبقراط ، وبعض مؤلفات ابن سينا والكندى والفارابى والغزالى وابن رشد . وفى كتـــابه عن تاريخ الطب العربى Histoire de la Medicine Arabe أحصى Le Clerc الكتب الطبية والكيميائية التى ترجمت من العربية إلى اللاتينية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فتجاوزت ثلاثمائة كتاب ، وهو عدد ضخم إذا قيس بمقاييس العصر .

والواقع أن حركة الترجمة هذه قد أمدت المكتبات بدماء جديدة بدأت تتدفق فى عروقها بقوة وعنف منذ القرن الثالث عشر الذى ظهر فيه الفرنسسكان والدومينكان

وأنشأوا لطائفتيهما مكتبات فى مختلف أنحـــاء أوربا وإن كانوا قد تركزوا فى المدينتين العظيمتين أكسفورد وباريس . ولم يكتف هؤلاء وأولئك بإنشاء المكتبات وإنما مضوا يخرجون قوائم أو فهارس لمقتنياتها .

ولقد كان للإخوان المسيحيين Friars فى القرن الثـالث عشر أثر فى تطور شكل الكتاب وحجمه ، فقد كانت كثرة تجوالهم تجعـــل من المتعذر عليهم أن يستعملوا الكتب ذوات الأحجام الكبيرة التى كانت تربط إلى رفوف الأديرة بالسلاسل ، ومن أجل هذا عملت لهم أناجيل وكتب صلوات على الرق فى أحجام صغيرة يمكن حملها بلا مشقة أو عناء[1] .

ومن أبرز رجالات هذا القرن العالم الإنجليزى الفيلسوف روبرت جروستست Robert Grosseteste (١١٦٨ — ١٢٥٣) الذى ترك بصماته على مفاهيم الدين والتعليم والمكتبات فى عصره ، وكانت له مكتبة ضخمة أوصى بها من بعده إلى مكتبة الإخوان من الرهبـان بأكسفورد Oxford Great Friars Library ومنها انتقلت إلى كلية درم Durham College وآلت فى النهـــاية إلى مكتبة البودليان بأكسفورد .

ومن بعد جروستست جاء تلميذه النـابه روجر بيكون Roger Bacon (١٢٢٠ — ١٢٩٢) أعظم المتحمسين للمنهج التجريبى ، وتوماس الأكوينى Saint Thomas Aquinas (١٢٢٥ — ١٢٧٤) أبرز رجال الدعوة للفكر المدرسى Scholasticism فى القرن الثالث عشر .

(1) The Origins of the English Library : 128.

وبتأثير الرهبان الفرنسسكان والدمينيكان بدأ ظهور الجامعات فى القرن الثالث عشر فى باريس وبادو وبولون ، ثم تتابع ظهورها فى القرن الرابع عشر فظهرت جامعات جديدة فى ڤينا وبراغ وكمبردج وأكسفورد .

وكان طبيعيا أن ترتبط الجامعات فى نشأتها بالكنيسة ، وكان طبيعيا أيضا أن يكون لكل جامعة ، بل لكل كلية مكتبتها الخاصة بها ، وأن تهيء الجامعات مناخا مساعدا على نشاط تجارة الكتب .

ولقد كان ظهور الجامعات بداية التحول من التعليم الدينى إلى التعليم الأكاديمى. وسرعان ما إنتقلت العملية التعليمية من الأديرة إلى الجامعات وانتقلت معها صناعة الكتاب ، فظهرت حوانيت بيع الكتب فى رحاب الجامعات الجديدة ، وأصبح جمع الكتب ونسخها عمل الهيئات الأكاديمية بعد أن كانت تقوم به الهيئات الدينية .

وليس ثمة شك فى أن ظهور الجامعات كان إيذانا ببداية مرحلة جديدة من تاريخ الكتب والمكتبات تتصف بالخصب والنماء ، فلقد كانت مناهج الدراسة الجامعية أشمل وأرحب من مناهج التعليم فى الاديرة لأنها لم تقتصر على علوم الدين وإنما تجاوزتها إلى علوم الدنيا كالمنطق والقانون والطب والرياضة ، وكانت إلى جانب ذلك تفرض على الطلاب مزيداً من الاطلاع والبحث فى بطون الكتب .

ومع أن الجامعات قد تولت تنظيم تجارة الكتب ونهضت بعمليات النسخ والتجليد والزخرفة ، إلا أن أسعار الكتب كانت مرتفعة بالنسبة لإمكانيات

الطلاب ما جعل بعضهم يستأجرونها من حوانيت بيعها أو يستعيرونها من زملائهم القادرين أو يشترون نسخاً مستعملة . ونظراً لارتفاع تكاليف النسخ فقد كان الكتاب الواحد لاينسخ دفعة واحدة وإنما على دفعات ، أو قطعة قطعة (pecia) بتعبير ذلك الزمان .

ومع بداية عصر النهضة تهمل مكتبات الأديرة وتأخذ في الاندثار وتظهر المكتبات الملكية في فرنسا على يد شارل الخامس الذى يقال إن مكتبته كانت تضم أكثر من ألف مخطوط عند وفاته في سنة ١٣٨٠ وإن شقيقه جين دى بيرى Jean de Berry (١٣٤٠ — ١٤١٦) لم يكن أقل منه تعلقاً بالكتب وحرصاً على اقتنائها[1] .

ولقد تميز القرن الرابع عشر في تاريخ الكتب والمكتبات بظهور شخصيتين هامتين كان ولعهما بالكتب وحرصهما على جمعها يفوق كل حد . فأما أولاهما فهى شخصية الأسقف الإنجليزى ريتشارد دى بيرى Richard de Bury (١٢٨٧ — ١٣٤٥) الذى أعلن الثورة على مارآه في أيامه من اضمحلال الثقافة وعدم احترام الكتب ، وألف كتابا سماه Philobiblon (أى صديق الكتاب) سكب على صفحاته شغفه الشديد بالكتب ، وتعرض فيه لحاجة الناس إليها ولضرورة العناية بها ، ثم هاجم رهبان الأديرة الذين شغلتهم مصالحهم الخاصة عن التفرغ للعلم وبلغ إهمالهم للكتب إلى حد أنهم كانوا يفترشونها ويتناولون عليها

(١) تاريخ الكتاب : ٧٥

طعامهم . والفصل الأخير من الكتاب يعالج النظم المكتبية[1]،وفيه يقرر المؤلف أن الكتب المكررة فقط هى التى يمكن أن تعار خارج المكتبة أما ماعداها فلا يسمح للباحثين إلا بالاطلاع عليها داخل المكتبة .

ولم يكن الـ Philobiblon هو كل مايميز ريتشارد دى بيرى فى تاريخ الكتب والمكتبات ، وإنما يضاف إليه أن صاحبه كان أول وأكبر جامع كتب إنجليزى فقد جمع من الكتب مايقرب من ١٥٠٠ مجلد بينها ثروة لايستهان بها من الكتب الكلاسيكية ،فقد كان يرى أن الأقدمين لم يتركوا مقالا لقائل[2] ، ومن ثم كان حرصه على اقتناء آثارهم شديداً .

أما الشخصية الثانية التى يذكرها تاريخ الكتب والمكتبات فى هذا القرن فهى الشاعر الإيطالى بترارك Francesco Petrarca (١٣٠٤ — ١٣٧٤) الذى يعتبره الكثيرون أباً للمذهب الإنسانى أو حركة إحياء الآداب الكلاسيكية وأباً لهواية الكتب الحديثة ، والذى أنفق شطرا كبيراً من حياته مرتحـلا يسعى وراء الكتب يجمعها ويبحث عن نوادرها ويدأب على مقابلتها وتصحيحها .

وقبل أن ينقضى هذا القرن كان الورق قد انتشر فى أوربا[3] وبانتشاره انتشرت

---

(١) يظن البعض أن أفكاره فى هذا الفصل مستقاة من مكتبة السربون وهو ظن لايقوم عليه أى دليل .

(٢) أى : لم يتركوا موضوعا إلا كتبوا فيه ووفوه حقه من البحث .

(٣) دخلت صناعة الورق أسبانيا وصقلية فى القرن الثانى عشر .وفى سنة ١٢٧٦ أنشئ مصنع للورق فى إيطاليا التى سرعان ما أصبحت المركز الرئيسى لتلك الصناعة=

الكتب بين الطبقات الوسطى ، وأقيمت حوانيت بيعها بجوار الكنائس أو حتى فى داخلها حيث كان يتم نسخ كتب الصلوات بصفة خاصة .

ويقبل القرن الخامس عشر حاملا معه أخطر حدث فى تاريخ الكتب والمكتبات وهو اختراع الطباعة بالحروف المتحركة .

ومن قبل عرفت الطباعة من الألواح فى الصين واليابان منذ القرن الثامن ولكن الجديد الذى طرأ هو اختراع الحروف التى تجمع معاً ويطبع بها ثم تفك وتغسل وتعاد إلى أماكنها لتستخدم من جديد .

ومع أنه من غير المؤكد تحديد مكان وتاريخ أول طباعة أوربية ، إلا أن الإجماع ينعقد على نسبة هذا الاختراع إلى الألمان وإلى يوحنا جوتنبرج Johann Gutenberg الذى كان يعمل فى مسبك للذهب استقى منه فكرة صهر المعادن . وفى مينز Mainz دارت مطبعة جوتنبرج لتخرج أول كتاب مطبوع فى تاريخ أوربا ، وكانت التوراة ذات الاثنين وأربعين سطرا التى طبعت سنة ١٤٥٥ هى أول علامة بارزة تلقانا على طريق الطباعة .

وقد ظل الكشف الجديد محصوراً فى ألمانيا حتى سنة ١٤٦٥ ثم بدأ ينتقل إلى أوربا منذ ذلك التاريخ على يد الألمان ، وكانت إيطاليا أول الدول الأوربية التى تلقفته بحكم أنها كانت موطن التعليم الحديث ومركز الثقل الروحى وميدان

= فى أوربا . وفى القرن الرابع عشر انتقلت صناعة الورق إلى فرنسا ثم إلى انجلترا وأخيراً إلى هولندا . ولم تصل إلى الدول الاسكندنافية إلا فى القرن السادس عشر .

النشاط المالى والتجارى . وفى سوبياكا Subiaca بدأت الطباعة فى إيطاليا ثم لم تلبث أن انتقلت إلى روما وڤينيسيا سنة ١٤٦٧ وسنة ١٤٦٨ . وفى إيطاليا ظهر أول طابع غير ألمانى وهو جنسون Jenson الفرنسى الأصل الذى تعلم الصنعة فى مينز بألمانيا ثم استقر به المقام فى ڤينيسيا قبيل سنة ١٤٧٠ وطبع بها الإنجيل باللغة الإيطالية سنة ١٤٧١ فكان بذلك أول كتاب يطبع بغير اللاتينية . ولم يلبث جنسون أن أصبح من أشهر الطباعين فى إيطاليا ومن أعظم مصممى الحروف الطباعية الرومانية والقوطية ثم اليونانية ، وقد تخصص فى طبع كتب الآباء والكنيسة وكتب التراث الرومانى كمؤلفات شيشرون .

وكانت فرنسا هى ثانى الدول الأوربية التى انتقلت إليها الطباعة فقد وصلت باريس سنة ١٤٧٠ حين وجه مدير جامعة السوربون وأمين مكتبتها دعوة لثلاثة من الطباعين الألمان لإنشاء مطبعة فى الحرم الجامعى ، وهناك طبعت الكتب الدراسية باللاتينية . ثم تلا هؤلاء الثلاثة طباعون ألمان آخرون ، ولم يظهر الطباعون الفرنسيون إلا منذ سنة ١٤٨٠ وكان على رأسهم أنطوان ڤيرار Antoine Vérard الذى بدأ الطباعة سنة ١٤٨٥ وأنتج ما يقرب من مائتى كتاب من كتب الصلوات ، وطبع كتبا باللاتينية وأخرى بالفرنسية ، واشتهر من بين معاصريه بالطباعة على الرق وبالطبعات الفنية بالألوان والزخارف .

وخلال العقدين السابع والثامن من هذا القرن الخامس عشر تنتشر الطباعة فى كثير من الدول الأوربية فتصل إلى سويسرا وتشيكوسلوفاكيا وأسبانيا وهولندا وبولندا والمجر ، وتظهر فى بريطانيا منذ سنة ١٤٧٥ على يد كاكستون Caxton الذى كان ناشراً ومترجما تعلم الطباعة فى كولون سنة ١٤٧٢ وأدخلها إلى بلجيكا

سنة ١٤٧٣ ثم حملها إلى وطنه سنة ١٤٧٦ وطبع أول كتاب فى وستمنستر سنة ١٤٧٧ وبلغ مجموع ما نشره ١٩٠ كتابا منها ٧٤ باللغة الإنجليزية . ولم يهتم كاكستون بنشر الكتب العلمية بقدر ما اهتم بنشر الكتب الروائية التى تجد لها سوقا رائجة عند القراء الإنجليز ، والسبب فى ذلك أنه بدأ ناشراً فكان أهم ما يعنيه هو تسويق الكتاب .

ولقد تميزت الحقبة الأولى من تاريخ الطباعة (النصف الثانى من القرن الخامس عشر) بأن أوائل الطباعين كانوا من الألمـــان وبأن أوائل المطبوعات كانت نصوصاً دينية باللغة اللاتينية ، وبأن الناشر كان هو الطابع وهو بائع الكتب فى نفس الوقت .

كما تميزت المطبوعات الأولى بأنها احتفظت ببعض سمات المخطوطات ، فقد كانت تبدأ بالنص مباشرة دون تخصيص صفحة للعنوان ، وكانت لا تستخدم أى ترقيم للأوراق ، وكانت تستعمل التعقيبات Catchwords وهى الكلمة الأولى من أول كل ورقة تالية تكتب فى ذيل الورقة التى تسبقها لتساعد على ترتيب أوراق الكتاب . يضاف إلى ذلك أن بيانات النشر (اسم الناشر وتاريخ نشر الكتاب) كانت تذكر فى نهاية الكتاب المطبوع وليس أوله كما هو الحال الآن، تقليداً لعادة كانت متبعة فى عصر المخطوطات .

ومع أن الطبــاعة كانت أهم ما يميز القرن الخامس عشر بالنسبة لتاريخ المكتبات لأنها أتاحت لتجارة الكتب أن تنشط ، وللثقافة أن تصل إلى كل مكان على وجه الأرض ، إلا أن هذا القرن قد شهد ظاهرتين أخريين جديرتين

بالتسجيل . فأما أولاهما فهى حركة ترجمة التراث اليونانى من أصوله اليونانية إلى اللغة اللاتينية بعد أن كانت اللغة العربية هى المعبر الذى عبره هذا التراث إلى الغرب فى القرن الثالث عشر . وأما الظاهرة الثانية فهى بداية ظهور مبانى خاصة بالمكتبات فى الكاتدرائيات والجامعات تخصص فيها قاعات مستقلة للاطلاع كتلك المكتبة التى شيدها الإخوان المسيحيون (Friars) فى لندن سنة ١٤٢٩ .

وتخطو البشرية نحو القرن السادس عشر فتلقاها الحركة البروتستنتية التى ظهرت على يد مارتن لوثر فى الربع الأول منه ، وتعرض مكتبات الأديرة والكنائس فى انجلترا وفرنسا وألمانيا للتخريب والتبديد . ففى ألمانيا تعرض عدد غير قليل من مكتبات الأديرة للنهب والتدمير فى حرب الفلاحين سنة ١٥٢٥ والشىء نفسه تكرر فى كثير من مكتبات الأديرة بفرنسا فى عصر الحروب الدينية (١٥٦٢ — ١٥٩٨) . وفى انجلترا كانت الفترة من سنة ١٥٣٦ إلى سنة ١٥٤٠ فترة عصيبة فى تاريخ مكتباتها ، فقد تعرضت كتبها للنهب والسلب نتيجة لحاجة الملك هنرى الثامن للمال وسيطرة غريزة حب التملك على حاشيته ، وصدر فى سنة ١٥٥٠ قانون بحرق كتب الصلوات الممنوعة . وعندما سقطت الكنيسة الكاثوليكية تحولت المكتبات الدينية إلى علمانية وأخفى الأفراد ماعندهم من الكتب أو هربوها إلى خارج البلاد . ويقدر عدد كتب الصلوات التى قضى عليها فى تلك الفترة بحوالى ربع مليون كتاب[1] . ويكفى أن نذكر أن مكتبة Eton كانت تضم مايقرب من ٥٠٠ مخطوطاً لم ينج منها بعد المحنة غير ستين

---

(1) The Origins of the English Library : 98

أو سبعين ليس غير ، وأن مكتبة جامعة أكسفورد (التى أنشئت فى القرن الرابع عشر) قد نهبت وأحرق الكثير من كتبها فى سنة ١٥٥٠ على يد مبعوثى الملك إدوارد السادس ، ثم بيعت أرففها بعد ذلك بست سنوات وتركت خاوية على عروشها نصف قرن من الزمان حتى بعثت إلى الحياة من جديد فى سنة ١٦٠٢ على يد توماس بودلى Thomas Bodley أحد رجالات الدولة فى عهد الملكة إليزابيث(١) .

أما البلاد التى ظلت خاضعة للكنيسة الكاثوليكية وخاصة تلك التى ظلت بها السيادة للجزويت كالنمسا وفرنسا وإيطاليا فقد ظلت بها المكتبات الكاثوليكية القديمة على حالها عقب الاضطرابات الأولى ثم تحولت إلى مكتبات علمانية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

ومنذ القرن السابع عشر يبدأ عصر الاهتمام بالكتب على مستوى الأفراد والنبلاء ، وتتصدر فرنسا قائمة الدول التى ازدهرت فيها المكتبات الخاصة والنهضة المكتبية . فى عصر لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر يبلغ الشغف باقتناء الكتب ذروته وتصبح المكتبات الخاصة لازمة من لوازم بيوت الفرنسيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كما كانت بالنسبة للرومانيين فى القرنين الأولين للمسيحية . وكما ثار سينكا على قومه فى القرن الأول ، كذلك ظهر لابروبير La Bruyere يجدد الثورة على أدعياء هواية الكتب من بنى قومه ويسخر منهم أشد السخرية فى كتابه « الشخصيات Caractéres » .

(1) Famous Libraries of the World : 4—6

ومن ألمع الأسماء فى تاريخ الكتب والمكتبات فى القرن السابع عشر جامع الكتب الفرنسى مازاران Mazarin وأمين مكتبته جبرائيل نوديه Gabriel Naudé . فأما الأول فقد جمع من الكتب ما يربو على أربعين ألف مجلد حتى اعتبرت مكتبته ثامن عجائب الدنيا السبع ، وأما الثانى فلا ترجع أهميته إلى تكوينه مجموعة مكتبة مازاران التى عهد بها إليه فى سنة ١٦٤٢ ، ولا إلى مكتبته الخاصة ذات الثمانية آلاف مجلد ، وإنما إلى كتابه « توجيهات خاصة بإنشاء مكتبة Avis pour dresser une bibliotheque » الذى نشر فى سنة ١٦٢٧[1] والذى يعتبر أول محاولة جادة لتخطيط بناء مكتبى سليم .

ونظراً لأن الكتاب يعتبر من أهم مشخصات الطريق الذى قطعه تاريخ الكتب والمكتبات ، فمن حقه علينا أن نتلبث عنده قليلا لنرى أهم المعالم التى أرساها والمبادئ التى نادى بها .

وأول قضية تطالعنا فيه هى قضية النوع والكم . وقد حسمها المؤلف حين ركز على أهمية نوعية الكتب وجعل المادة العلمية والاستعمال العملى هما معيار اختيار أى كتاب للمكتبة بصرف النظر عن ندرته أو مكانة مؤلفه .

وبالنسبة لموقع المكتبة وهو موضوع الفصل السادس من الكتاب نلاحظ أن حديث نوديه ينصب على المكتبة الخاصة التى ينشئها المرء فى بيته لنفسه لا المكتبة

---

(١) ترجم الكتاب إلى الإنجليزية John Evelyn ونشره بعنوان :
Instructions Concerning Erecting of a Library
فى سنة ١٦٦١ وهو الوقت الذى كانت فيه المكتبات الإنجليزية آخذة فى النمو والتضخم .

العامة التى تنشئها الدولة أو من يقوم مقامها لخدمة الجمهور . ومن أجل هذا نراه ينصح باختيار مكان يتوافر فيه أكبر قدر من الضوء الطبيعى ويكون فى نفس الوقت بمنـــأى عن الضوضاء والرطوبة ، فما ينبغى أن تكون المكتبة مطلة على الشارع أو مجاورة للمطبخ أو أماكن التجمع فى البيت .

وعندما يتحدث نوديه عن تنظيم المكتبة فى الفصل السابع يضرب لنا مثلا طريفا حين يشبِّه الكتب فى المكتبة بالجند فى الجيش ، فكما أنه لا قيمة لجيش مكون من آلاف الجنود ما لم يكن كل منهم فى موقعه وتحت إمرة رئيسه ، كذلك الكتب فى المكتبة لا قيمة لها مهما كثرت إلا بالنظام الذى يضع كل كتاب فى موضعه بحيث يمكن الوصول إليه عند الحاجة فى لحظات . والنظام الذى يقترحه نوديه هو أن توضع الكتب تحت رءوس موضوعات عامة يقسم كل منها إلى جزئياته وأن يراعى فى كل قسم من الأقسام أن تقدم الكتب القديمة على الكتب الحديثة وأن ترتب التعليقات والشروح بنفس الطريقة التى اتبعت فى ترتيب الأصول .

وفى الفصل الثامن من الكتاب يتحدث نوديه عن أثاث المكتبة ورفوفها وعن صيانة الكتب وطرق الحفاظ عليها ، وينــــادى بأن تستغنى المكتبة عن التجليد الفاخر وتوفر الأموال التى تنفق فيه لشراء المزيد من الكتب الجديدة . ثم يناقش فى الفصل التاسع واجبات المكتبى ويلح على ضرورة وجود فهرسين فى المكتبة أحدهما للموضوعات والآخر للمؤلفين ، ويقرر مبدأ الإعارة الخارجية بشرط ألا تتجاوز مدتها أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأكثر ، على أن تنظم لها سجلات خاصة تتم بواسطتها عمليات الحصر والمتابعة .

تلك هى أهم الأسس التى أرسى دعائمها جبرائيل نوديه فى كتابه الذى يعتبر

محاولة ناجحة ورائدة لتخطيط نظام مكتبي يقوم على أساس منطقي .

ولقد كانت مشاركة انجلترا فى دفع عجلة التطور بالكتب والمكتبات ضئيلة فى تلك الحقبة من التاريخ إذا قيست بما أسهمت به فرنسا سواء من ناحية حجم مكتباتها أو نظم هذه المكتبات أو الفكر المكتبي نفسه . وبشهادة مؤرخ إنجليزى بل وأستاذ تاريخ المكتبات فى إنجلترا (ريموند إيرون) لم توجد مكتبة إنجليزية فى القرن السادس عشر تضارع فى الحجم مكتبة المؤرخ الفرنسى جاك دى تو Jacques de Thou التى كانت تضم تسعة آلاف كتاب من بينها ألف مخطوط[1] . وحينما أنشئت مكتبة البودليان بأكسفورد فى أول القرن السابع عشر لم تكن تضم أكثر من ألفى كتاب زادت إلى ستة عشر ألفا فى سنة ١٦٢٠ وبلغت ستة وثلاثين ألفا فى سنة ١٧١٤ منها ما يقرب من ستة آلاف مخطوط[2]. وكانت مكتبة البودليان هذه أضخم المكتبات الإنجليزية بدليل أن مكتبة كمبردج لم يكن بها فى سنة ١٦٤٩ سوى ألف كتاب مطبوع وأربعمائة مخطوط ، وفى سنة ١٧١٠ لم يكن عدد كتبها يتجاوز أربعة عشر ألفاً .

ومع ذلك فقد تميزت انجلترا فى القرن السابع عشر ببعض مجموعات خاصة على قدر كبير من الضخامة نذكر منها مجموعة الأسقف مور Moore التى كانت تضم أكثر من ثلاثين ألفاً من الكتب المطبوعة و ١٧٩٠ من المخطوطات[3] ، ومجموعة

(١) The Origins of the English Library: 131

(٢) Famous Libraries of the World : 15

(٣) وقد اشتراها الملك جورج الأول سنة ١٧١٥ ليعزز بها مكتبة كمبردج
انظر : Famous Libraries of the World : 36

السير هانز سلون Sir Hans Sloane التى تقدر محتوياتها بحوالى ٤٠ ألف مطبوع و٣٥١٦ مخطوطا، ومجموعة روبرت وإدوارد هارلى Robert and Edward Harley التى كانت تضم فى سنة ١٧٤٠ خمسين ألف كتاب مطبوع و ٣٥٠ ألف كتيب و ٧٦٣٩ مخطوطا[1].

هذا بالنسبة لأحجام المكتبات. أما بالنسبة للفكر المكتبى فلم يظهر بين الإنجليز من يضارع جبرائيل نوديه وإن كان جون ديورى John Durie أمين المكتبة الملكية بلندن قد دخل تاريخ الكتب والمكتبات بكتابه The Reformed Librarie Keeper الذى نشره سنة ١٦٥٠ ونادى فيه بتوسيع المكتبة الملكية لتصبح مكتبة قومية للدولة. وكانت هذه أول مرة تظهر فيها فكرة المكتبات القومية.

وفى ألمانيا ظهر Leibniz صاحب فكرة إنشاء مكتبة للمراجع تقوم على مبدأ نوديه فى الاهتمام بالنوع دون التقيد بالكم، وتتاح لها الإمكانيات المادية بحيث لا تقف أسعار الكتب حجر عثرة فى سبيل استكمال مجموعاتها.

ولقد مضت هواية جمع الكتب فى طريقها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ففى فرنسا كان للدوق لويس دى لاڤاليير Louis de la Valliere فى القرن الثامن عشر مكتبة ضخمة استمر مزاد بيعها بعد وفاته فى سنة ١٧٨٤ واحداً وثمانين يوما وجمع منها مبلغ ٤٦٥ ألف ليرة[2]. وفى ألمانيا كان لفردريك الثانى (فردريك

(1) The Origins of the English Library : 132

(٢) تاريخ الكتاب : ٢٣٠

الأكبر) مجموعات كبيرة من الكتب فى سان سوسى Sans—Souci وبوتسدام Potsdam ، واشتهرت مدينة درسدن بكثرة ما بها من مكتبات خاصة كانت موضع افتخار أصحابها كما كان الحال فى باريس . ومن أشهر هذه المكتبات وأكبرها حجما مكتبة الكونت هنرى دى بريل Henri de Bruhl التى بلغت مقتنياتها ٦٢ ألف كتاب(١) .

وكان القرن التاسع عشر أغنى من سابقه بالمكتبات الخاصة وخاصة فى انجلترا وحسبنا أن نذكر من أبرز أصحاب تلك المكتبات المركيز دى بلانفورد Marquis de Blanford واللورد سبنسر Lord Spencer (الذى بلغت كتبه أربعين ألف مجلد) وريتشارد هبر Richard Heber وسندر لاند Sunderland . وفى فرنسا كان نابليون يصحب معه فى حروبه مكتبة متنقلة تضم ما يقرب من ثلاثة آلاف مجلد كما كان يفعل فردريك الأكبر . وكانت الكتب التى يغنمها من الحروب تنقل إلى باريس وتودع بمكتبتها الأهلية التى أنشئت فى القرن الثامن عشر . ومن أشهر جماعى الكتب الفرنسيين فى هذا القرن شارل نوديه Charles Nodier وج . دى بيكسيريكور G. de Pixerécourt مؤسس جمعية هواة الكتب الفرنسيين Société des Bibliophiles Français .

ومع منتصف القرن التاسع عشر يبدأ عصر التوسع المكتبى والنهضة المكتبية فتتوسع المكتبات القومية وعلى رأسها مكتبة المتحف البريطانى فى لندن والمكتبة الأهلية بباريس ، وتنشر لها فهارس مطبوعة تجاوزت مائة مجلد بالنسبة لكلّ من

---

(١) تاريخ الكتاب : ٢٣٥

هاتين المكتبتين ، وتظهر المكتبات العامة على مسرح الحياة كأداة تثقيفية تهتم بها الحكومات والشعوب ، وتتطور المفاهيم المكتبية وتتغير نظرة الناس للمكتبة بحيث لم تعد متحفا للكتب وإنما أصبحت مركزا حياً لنشر الثقافة كما عبر عن ذلك أنطونيو بانزى Antonio Panizzi مدير مكتبة المتحف البريطانى فى منتصف القرن .

ولم تكن رسالة المكتبة وحدها هى التى بدأت تتبلور فى تلك الحقبة من التاريخ الحديث ، وإنما بدأ معها التنظيم العلمى للمكتبات ، فبدأت تنظم الفهارس وعمليات الإعارة والخدمة المكتبية .

وبدأ علم تصنيف الكتب فى المكتبات يأخذ مكانه بين العلوم وتتابعت خطط التصنيف واحدة بعد أخرى ، فظهرت الطبعة الاولى من تصنيف ملفل ديوى سنة ١٨٧٦ . وعندما أرادت مكتبة الكونجرس الامريكى أن تنتقل إلى مبناها الجديد فى سنة ١٨٩٧ بعد مائة عام من النمو المطرد وضعت لها خطة تصنيف تلائم مقتنياتها. وفى أوائل هذا القرن الذى نعيش فيه ظهر التصنيف العشرى العالمى لأول مرة فى طبعته الفرنسية سنة ١٩٠٥ ، وبعدها بعام (أى فى سنة ١٩٠٦) نشر التصنيف الموضوعى لجيمس براون ، ثم نشر تصنيف الكولون لرانجاناثان سنة ١٩٣٣ . وبعد ذلك بعامين نشر هنرى إفلين بليس تقريراً موجزاً عن خطة التصنيف الببليوجرافى الذى ينسب إليه ، ثم أصدر الطبعة الثانية فى العام التالى (سنة ١٩٣٦) وأخيرا نشر القوائم كاملة فيما بين سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٥٣ .

وفى هذه الأثناء كان علم الببليوجرافيا هو الآخر يشق طريقه إلى الوجود فعقد أول مؤتمر دولى عن الببليوجرافيا فى بروكسل سنة ١٨٩٢ وتمخض هذا

المؤتمر عن تأسيس المكتب الدولى للببليوجرافيا الذى تحول فيما بعد إلى الاتحاد الدولى للتوثيق . وما زال هذا العلم يرتقى وينمو حتى انبثق عنه فرعان رئيسيان هما الببليوجرافيا التحليلية أو النقدية (Analytical (or critical التى تتناول الكتاب من حيث شكله وبنائه المادى ، والببليوجرافيا الإحصائية أو النسقية (Enumerative (or Systematic التى تعنى بإعداد قوائم بالكتب التى تتناول موضوعا معينا (الببليوجرافيا الموضوعية) أو التى تصدر فى بلد معين (الببليوجرافيا القومية) .

ونتيجة لانتشار التعليم بين مختلف طبقات الأمم والشعوب ، ونتيجة لتطور الطباعة وكثرة ما تخرجه المطابع من الكتب والصحف والنشرات وغيرها من صور النشر الحديثة ، أصبح من العسير على أى مكتبة — مهما كانت إمكانياتها — أن تجمع كل ما ينشر على ظهر الأرض ، بل أصبح من العسير أن يتسع مبنى أى مكتبة — مهما كانت ضخامته — لمتابعة سيل الإنتاج الفكرى الذى يتدفق من المطابع كل يوم .

وكما أدى سيل المعرفة الجارف إلى استحالة أن يلمّ فرد واحد بجميع أطرافها وإلى ضرورة التخصص فى فرع من فروعها المتعددة ، كذلك تضافرت هذه العوامل جميعها وأدت إلى التخصص فى أنواع المكتبات فظهرت إلى جانب المكتبات القومية والمكتبات العامة أنواع أخرى أهمها المكتبات الجامعية والمكتبات المتخصصة والمكتبات المدرسية .

ومنذ منتصف هذا القرن العشرين بدأت المكتبات تفيد من منجزات العلم الحديث فى مجال التصوير فاستعملت وسائل مختلفة أهمها الميكروفيلم microfilm والميكروستريب microstrip والميكروفيش microfiche لنقل

المواد المكتوبة أو المطبوعة على أفلام ، واستعملت وسائل أخرى لنقلها على الورق أهمها الميكروبرنت microprint والميكروكارد micro—card والميكروليكس microlex .

وهناك من يتحمس لتلك الوسائل تحمساً شديداً حتى ليرى فيها حلاً لأزمة المكان التى تعانى منها المكتبات الآن فى جميع دول العالم ، ومن ثم ظهرت فى السنوات الأخيرة صيحات تنادى بأن تستغنى المكتبات عن الكتب بالأفلام ، وبدلا من أن تحتفظ على رفوفها بمجلدات ضخمة ، تكتفى بعلب صغيرة تحفظ بداخلها أشرطة الأفلام .

وتلك صيحة تعبر عن الافتتان بالإمكانيات التى تتيحها وسائل التصوير الحديثة ولكنها تغفل أشياء أخرى كثيرة جديرة بأن توضع فى الاعتبار لعل أهمها طريقة استعمال الميكروفيلم والقيود التى تفرضها على المكتبات والباحثين على السواء .

ولم يكن التصوير هو المجال الوحيد الذى أفادت منه المكتبات فى تيسير الخدمات لروادها ، وإنما أدى التتابع السريع والمنتظم للمعلومات[1] وبخاصة فى مجال العلوم والتكنولوجيا[2] (وهو ما يطلق عليه تفجر المعلومات) والطلب

---

(١) التى تنشر فى صورة مقالات (فى الدوريات العلمية) أو أبحاث أو تقارير أو نشرات أو إحصائيات أو رسائل علمية أو غير ذلك من صور النشر الحديثة .

(٢) للدلالة على ضخامة ما ينشر فى المجلات العلمية يكفى أن نشير إلى أن المجلات المتخصصة فى العلوم والتكنولوجيا قد ارتفع عددها من ١٠٠ مجلة فى العالم كله فى مطلع القرن التاسع عشر إلى ١٠٠,٠٠٠ مجلة فى سنة ١٩٦٠ ، وأن المقالات العلمية التى تنشر فى المجلات الآن يتراوح عددها بين مليون ومليون ونصف مقالة سنويا .

الدائب المستمر عليها ، أدى ذلك إلى أن تقوم المكتبات بعمليات جمع هذه المعلومات وتسجيلها وتصنيفها واختزانها ثم تعريف الباحثين بها وتيسير اطلاعهم عليها ، وهو ما كان يعرف بالتوثيق Documentation وأصبح يطلق عليه الآن علم المعلومات Information Science

ومنذ الحرب العالمية الثانية بدأت الآلات الحاسبة الإلكترونية تستخدم فى عمليات اختزان المعلومات واسترجاعها بمراكز التوثيق ، تلك التى اتخذت لنفسها من المكتبات العلمية الكبرى مقراً لها[1] ومن مجموعاتها مادة لعملها .

وهكذا وضع العلم الحديث كل إمكانياته فى خدمة البحث وأتاحت الوسائل الإلكترونية للمكتبات أن تصبح مراكز إعلام وتوثيق .

وما زال الطريق أمام العلم والتكنولوجيا طويلا ، وما زال هناك الكثير من الطاقات كامنا لم يتفجر بعد ، وما زالت الثورة العلمية منطلقة نحو غايتها للكشف عن أفضل الطرق لمتابعة الإنتاج الفكرى وتنظيمه وخدمته وتيسيره للراغبين فيه .

وببداية عصر التكنولوجيا تدخل المكتبات مرحلة جديدة من مراحل تاريخها الطويل يمكن تسميتها المرحلة الإلكترونية ، وهى مرحلة مازال الأفق أمامها ممتداً رحيباً .

---

(١) أنشئ أول مركز للتوثيق فى هولندا سنة ١٩٢٢ ، ثم أنشأت المكتبة العلمية بلندن مركزا آخر فى سنة ١٩٢٦ . وفى سنة ١٩٢٩ أنشئت الجمعية السويسرية للتوثيق ، كما أنشئ مركز فى مكتبة المعهد العالى التكنولوجى ببرلين سنة ١٩٣٢ .

خطوات على الطريق

وبعد هذا العرض السريع لتاريخ الكتب والمكتبات ، لابد من وقفة تأملية تتجاوز حدود الزمان وتطوى أبعاد المكان وتحاول أن تتبين أهم مشخصات هذا الطريق الطويل الذى قطعته الكتب والمكتبات منذ أقدم العصور حتى هذا العصر الذى نعيش فيه .

وأول ما يلفت النظر أن الكتاب والمكتبة كلاهما مظهر حضارى فى حياة الامم والشعوب ، وعلى مدى التاريخ كله لم توجد الكتب والمكتبات فى أى بقعة من الأرض إلا مرتبطة بالحضارة بصفة عامة وبالعلم والتعليم بصفة خاصة . فالكتاب أداة تثقيفية فى حد ذاته ، وحيث لا يوجد تعليم ومتعلمون وثقافة ومثقفون فإننا لا ينبغى لنا أن نتوقع وجود كتب أو مؤلفات . أما المكتبات فإنها لا توجد إلا كنتيجة طبيعية لكثرة المصنفات واهتمام الناس بجمعها والحفاظ عليها وترتيبها بحيث يسهل الرجوع إليها . ومن أجل هذا ارتبط ظهور الكتب والمكتبات عند اليونان بالحركة الفكرية والمدارس الفلسفية التى ظهرت ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد على أيدى كبار الفلاسفة من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكان ظهورها عند الرومان فى القرن الثانى قبل الميلاد نتيجة لما تدفق على بلادهم من تراث اليونان وآثارهم الفكرية . ولم تظهر الكتب والمكتبات عند العرب إلا عندما تخلوا عن أميتهم وأخذوا بأسباب العلم والمعرفة الدينية والدنيوية بعد انتشار الإسلام بينهم وبعد استجابتهم لما دعاهم إليه من بحث وتفكر وتعليم . أما المكتبات الأوربية

فى العصور الوسطى فكانت مرتبطة بالعملية التعليمية فى الأديرة أول الأمر ثم فى الجامعات منذ ظهورها فى القرن الثالث عشر .

وكان طبيعياً ألا تكثر الكتب إلا فى مراكز الثقافة والتعليم أو فى المراكز الحضارية بتعبير أعم . ومن أجل هذا ننظر فنرى المكتبات اليونانية والرومانية والعربية والغربية وقد تركزت فى العواصم والمدن الكبرى ، أو فى « الأمصار العظيمة العمران » إذا جاز لنا أن نستعمل عبارة ابن خلدون[1] . ولئن كان كثير من مكتبات القصور الرومانية فى عصر شيشرون وبلليني[2] قد وجد فى الريف ، ولئن كانت مكتبات الأديرة فى العصور الوسطى قد استقرت فى مناطق نائية عن المدن ، إلا أننا ينبغى أن نلاحظ أن صلة هذه المكتبات بروما كانت وثيقة لا تنقطع ، وأن أصحاب المكتبات الرومانية كانوا يكثرون من التردد على العاصمة والإقامة بها لفترات قد تطول .

ولم يكن الجو الثقافى هو العامل الوحيد فى نشأة الكتب والمكتبات على مر العصور ، وإنما كان هناك عامل آخر لا يقل عنه أهمية وخطورة ونعنى به أدوات الكتابة وموادها ومدى توافرها . فالكتاب ليس مادة علمية فحسب ، وإنما هو مادة علمية مسجلة . وهنا تبرز أهمية المواد التى يسجل عليها[3] ، فلو لم يتيسر

---

(١) المقدمة : ٩٦٢ .

(٢) كان شيشرون فى القرن الأول قبل الميلاد وكان بلليني فى القرن الأول الميلادى .

(٣) كانت الحجارة والمعادن والأقمشة تستعمل فى الكتابة عليها . ففى روما — مثلا — كان الكتان يستعمل فى كتابة الوثائق ، وفى الصين ظل الحرير =

البردى فى مصر كمادة طيعة للكتابة ما وجدت الكتب عند قدماء المصريين منذ الألف الثالث قبل الميلاد ولو لم يتدفق هذا البردى المصرى على بلاد اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد ، ما ازدهرت بها الحركة الفكرية والنهضة الأدبية فى القرن الخامس (ق . م) . ولو لم تدخل لفائف البردى آفاق الحياة الرومانية فى القرن الثانى قبل الميلاد ما وجدنا عند الرومان نهضة فكرية أو أدبية فى عصر أغسطس. ولولا ظهور الرق فى القرون الأربعة الأولى المسيحية ما انتشرت المصنفات وخاصة كتب الدين فى أوربا . فإذا انتقلنا إلى بلاد العرب وجدنا أن الكتب لم تنتشر فيها إلا بعد فتح مصر واستخدام البردى كمادة لتلقى الكتابة أيسر تناولا وأرخص سعرا من الرق . ولقد ظل البردى والرق يتعاونان معاً فى حمل رسالة الكلمة العربية المكتوبة حتى بدأت صناعه الورق فى بغداد فى زمن الرشيد ومضت خطوات على طريق التطور والنماء ، ثم انتقلت من العراق وما وراء النهر فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) إلى الشام وفلسطين والمغرب العربى ، ومنها إلى أسبانيا وإلى شاطبة على وجه الخصوص حيث كان يعمل الكاغد الجيد فيها ويحمل منها إلى سائر بلاد الأندلس ، كما يقول ياقوت[1] . وفى الوقت الذى كان الورق فيه يكثر ويصبح فى متناول كافة الناس ، كان البردى والرق فى طريقهما

= يستعمل فى الكتابة حتى حل الورق محله فى القرن الثانى للميلاد . ولكننا لانتحدث عن تاريخ الكتابة وإنما عن تاريخ الكتب ، ومن أجل هذا تخرج تلك المواد عن نطاق البحث لأنها لم تنتج كتبا ولم يكن لها تأثير يذكر على تاريخ صناعة الكتاب .

(١) معجم البلدان : ٣ : ٢٣٥ .

إلى الاندثار والزوال . وبتعبير أبي منصور الثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) نستطيع أن نقول إن كواغيد سمرقند و عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الاوائل يكتبون فيها لأنها أحسن وأنعم وأرفق وأوفق »[١] .

ونفس الشيء حدث في أوربا في عصورها الوسطى، فقد ظل الرق هو المادة الغالبة التى تسجل عليها الكتب فى علوم الدنيا والدين حتى ظهر الورق فى القرن الخامس عشر فكان ظهوره فتحاً جديداً فىعالم الكتب والمكتبات نتيجة للتغلب على عيوب الرق وكمياته المحدودة وأسعاره الباهظة . ومن أجل هذا شهد القرن السادس عشر موجة فكرية وفنية طاغية كان يطفو على سطحها إراسموس وفيشر وتوماس مور ومايكل أنجلو ورافائيل وميكيافيللي وليوناردو دافنشى .

وقصة البردى والرق قصة يجب أن نقف عندها لأنها تمثل تطورا خطيراً لا فى إنتاج الكتاب فحسب وإنما فى شكله المادى أيضا[٢] .

وفى وادى النيل يبدأ أول فصول هذه القصة ، ففى مجرى النهر الخالد ، وفى الترع والقنوات المنتشرة فى شمال الدلتا بصفة خاصة ، كان نبات البردى ينمو بكثرة هائلة منذ أقدم العصور ، وكان المصريون يفتلون جذوره حبالا للمراكب ويصنعون من أوراقه صحفا يكتبون عليها عرفت فيما بعد باسم القراطيس . ويحدثنا

---

(١) لطائف المعارف : ٢١٨ .

(٢) عن البردى ولفائفه انظر .

Books and Readers in Ancient Greece and Rome :47—74

ومادة Books, Greek and Latin فى :

Oxford Classical Dictionary

ابن البيطـــار فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى عن طريقة عمل هذه القراطيس عند المصريين فيقول :

« كانوا يعمدون إلى سوق النوع فيشقونها نصفين من أولها إلى آخرها ويقطعونها قطعا قطعا ، وتوضع كل قطعة منها إلى لصق صاحبتها على لوح من خشب أملس . ويأخذون تمر البشنين ويلزجونه بالماء ويضعون تلك اللزوجة على القطع ويتركونها حتى تجف جيداً ويضربونها ضربا لطيفا بقطعة خشب شبه الإرزبة صغيرة حتى تستوى من الخشن فتصير فى قوام الكاغد الصرف الممتلىء »[1] .

وكان الحجم العادى للصحيفة من البردى المصرى القديم حوالى ٢٥ × ١٨ سم وربما تجاوز ذلك قليلا فى الأنواع الجيدة .

وحينما نقل اليونانيون البردى إلى بلادهم وحاولوا أن يصنعوه لم يفلحوا فى أن يضاهوا الصناعة المصرية جودة وإتقاناً ، فكانت أوراق البردى اليونانى أصغر حجما وأقل جودة .

ولم يكن قدماء المصريين واليونانيين يكتبون على أوراق البردى المفردة ثم يلصقونها لتكون صحفا مدرجة أو لفائف ، وإنما كانت الاوراق تلصق قبل الكتابة عليها بدليل أننا نجد الكتابة فيما تبقى لنا من لفائف مصرية ويونانية تجرى على أماكن التصاق الاوراق بعضها ببعض .

وكانت اللفائف تختلف طولا وقصرا ، وإن كانت معظم اللفائف المصرية القديمة تزيد على خمسة عشر متراً ، وربما جاوز بعضها ثلاثين متراً فى الطول ،

(١) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية : ١ : ٨٧ .

بينما كان أقصى طول للفافة البردى اليونانية هو عشرة أمتار . أما عرض اللفائف أو ارتفاعها فكان فى حدود ٣٠ سنتيمترا أو أكثر ، وربما بلغ ٥٠ سنتيمترا فى بعض الحالات .

وكانت اللفائف تقوم حول قطع اسطوانية من المعدن أو الخشب تزدان فى بعض الأحيان بألوان مختلفة من الحليات والزخارف الملونة والمذهبة .

وكان الكتّاب يتركون مسافة بيضاء فى أول اللفافة لكى تحمى أول النص من التمزق من ناحية ، ولكى يمسك بها القارئ عند القراءة من ناحية أخرى . وبعد هذه المسافة البيضاء كانت الكتابة تجرى على شكل أعمدة يتراوح طولها بين ٢٥ و ٣٠ سطراً وتفصل بينها مسافات صغيرة . وكانت طبيعة النص هى التى تحكم طول السطر أو قصره ، فنى الشعر — مثلا — كان طول بيت الشعر هو الذى يحدد طول السطر بينما كان طوله فى النثر يتراوح بين ٥ و ٨ سم تقريباً . ولم تكن نهايات السطور متساوية على الدوام ، ومن أجل هذا كان يستعان بعلامة > لملء الفراغات فى نهاياتها . أما الهوامش فكانت فى حدود ٤ أو ٥ سنتيمترات ، وكان يراعى دائماً أن تكون العليا منها أكبر من السفلى .

ولم يكن عنوان الكتاب يتصدر النص كما فى الكتب الحديثة وإنما كان يرد فى آخره الذى كان يميز فى بعض الأحيان بحلية فى الهامش للدلالة على انتهاء النص .

وكانت الكتابة دائما على وجه واحد من البردى وهو الوجه الذى تكون فيه الألياف أفقية ، وإن كان هذا لم يمنع من وجود حالات كتب فيها نصان على لفافة واحدة كل منهما على أحد وجهيها وخاصة فى الكتب المدرسية .

وبعد الانتهاء من كتابة النص كانت اللفافة تربط بخيط أو تحفظ فى حافظة

من الرق إن كانت من الأهمية بحيث يراد لها طول البقاء . وكثيراً ما كان يلصق عليها أو على الحافظة المشتملة عليها جذاذة من البردى أو من الرق تحمل اسم الكتاب المدون عليها .

ونظراً لتعذر عمل أحجام كبيرة من اللفائف بسبب صعوبة الكتابة وصعوبة الاستعمال معاً ، كانت النصوص الطويلة كالإلياذة والأوديسا تقسم إلى لفائف . ولم يكن يمكن جمع أعمال المؤلف الواحد من أمثال أفلاطون أو هوميروس على لفافة واحدة ، ومن ثم كانت تكتب على لفائف متعددة تجمع فى مكان واحد يحمل اسم المؤلف .

وكانت اللفائف تحفظ فى عيون أو ثقوب فى الجدران Pigeon holes تختلف أحجامها باختلاف عدد لفائف الكتاب الواحد . ولم يكن لهذه العيون أبواب تغلق عليها وإنما كانت كعوب اللفائف ظاهرة للعيان ، ولعل هذا هو السبب فيما كانت تحظى به من حليات وزخارف .

ولقد ظلت لفائف البردى هى الشكل العادى للكتاب فى الغرب حتى ظهر الرق كنافس له فى أواخر القرن الأول للميلاد[1] .

والرق فى اللغة هو كل ما يرقق من الجلد ليكتب فيه . ويذكر Varro أن التنافس بين مكتبة الإسكندرية ومكتبة برجاموس قد دعا يومينوس الثانى Eumenes II ملك برجاموس إلى محاولة إغراء أرسطوفان البيزنطى مدير مكتبة

---

(1) كتب Kenyon فصلا ممتعا عن قصة الرق ودوره فى تاريخ الكتب والمكتبات الأوربية فى كتابه :

Books and Readers in Ancient Greece & Rome : 87 — 120

الإسكندرية بالانتقال إلى بلاطه فى برجاموس، وأن بطليموس أحس بتلك المحاولة فأودع مدير مكتبته السجن وفرض حظراً على تصدير البردى إلى برجاموس مما اضطر يومينوس إلى أن يهتم بصناعة الرق وينميها .

ولكن الرق لم يستطع أن يتفوق على البردى حتى القرن الثانى الميلادى على أقل تقدير ، فإن كلام بلينى الذى كتبه فى النصف الثانى من القرن الأول يدل على أن الرق الذى استعمل فى برجاموس كان ضرورة فرضتها الظروف ، وأنه لم يكن يقوى على أن يقف على قدم المساواة مع البردى الذى كان حتى ذلك الحين المادة الأساسية للكتابة . ومعنى ذلك أن لفائف البردى قد ظلت لها السيادة حتى فى القرن الثانى للميلاد .

ولقد ارتبط الرق منذ وجوده بالمسيحية وخاصة منذ اتخذتها الإمبراطورية الرومانية ديناً رسمياً لها . ولم يلبث رهبان الأديرة الذين كانوا يقومون بنسخ الكتاب المقدس وإذاعته فى الناس بشروحه وتعليقاته خلال القرنين الأولين من ظهور المسيحية ، لم يلبثوا أن أحسوا بالقيود التى تفرضها أحجام اللفائف على طول النص من ناحية ، وبتعذر الإحالة أو الإشارة إلى نص معين إذا هو كتب فى طيات لفافة من البردى من ناحية أخرى[1] . وهو إحساس شاركهم فيه رجال القانون فى الإمبراطورية الرومانية الذين كانوا يعانون هم الآخرون من صعوبة الإشارة إلى نصوص القوانين . فتفكر هؤلاء وأولئك فى طريقة يمكن بها التغلب على تلك المشكلة واستطاع الرق أن يلبى تلك الحاجة وأن يسمح بحرية أكبر فى

---

(١) خاصة وأن أعمدة النص لم تكن ترقم ، ولم تكن تستعمل علامات الفصل بين الكلمات والجمل .

،حجام الكتب وذلك عندما تحول شكل الكتاب على أيدى الرومان فى القرن الأول الميلادى من اللفائف والدروج إلى الدفاتر والكراريس . وهو تحول أفاد منه المسيحيون المصريون ونموه وارتقوا به فى أواخر هذا القرن ، ولم يفد منه الوثنيون إلا فى القرن الثالث بدليل أنه لا توجد مخطوطات وثنية على شكل دفاتر أو كراريس ترجع إلى ما قبل ذلك التاريخ .

ولقد وجد التحول الجديد فى الرق مادة أكثر طواعية من البردى نظراً لأن الدفاتر تحتاج إلى أحجام كبيرة يمكن طيها دون أن يعرضها الطى للفساد . ولم تكن أوراق البردى من الكبر بحيث تطوى ، ولم تكن من القوة بحيث تحتمل الطى دون أن تتعرض للتلف والدمار .

وهكذا كانت إمكانية زيادة حجم الدفتر مع التحكم فيه ، أو تقسيم النص على أكثر من دفتر ، وميزة سهولة الإشارة إلى نص ورد فى السياق ، يضاف إليهما أن الدفتر أيسر فى استعماله من اللفافة التى كانت تتطلب من القارئ أن يستخدم كلتا يديه فى فكها من ناحية وطيها من الناحية الأخرى ، كانت هذه الميزات الثلاث تتضافر معاً لتحقق تفوق الدفاتر والكراريس على اللفائف والدروج . ولم يكن يعيب الشكل الجديد للكتاب إلا صعوبة التجليد ، وهى مسألة لم تكن من الخطورة بحيث تعرقل عجلة التطور أو تعوق مسيرة التجديد الذى دعمه وقواه استبدال البردى بالرق وهو أكثر جمالا وأبقى دواما (وخاصة فى أجواء أوربا الرطبة) وأكثر تحملاً للمحو والتصويب .

ولقد انتشر هذا الشكل الجديد للكتاب فى الشرق بصفة خاصة ، فى آسيا الصغرى وفلسطين وبلاد فارس حيث تكثر قطعان الماشية ويتوافر الرق الذى

لا تزال له استعمالاته هناك حتى الآن[1] .

ولكننا ينبغي ألا نظن أن هذا الانتصار قد تحقق في يوم وليلة ، فقد استغرق ما يقرب من قرنين من الزمان . وبنهاية القرن الرابع الميلادي يختفي البردي من أوربا تاركاً مكانه للرق ، وتختفي اللفائف تاركة مكانها للدفاتر والكراريس[2] .

ولقد ظلت دفاتر الرق هي الصورة المألوفة للكتاب على مدى ألف عام ، وكان القرن الخامس عشر هو الذي شهد عملية التحول من الرق إلى الورق ومن الكتاب المخطوط إلى الكتاب المطبوع .

والواقع أن الورق كان منافساً خطيرا للرق لأنه أيسر تناولا وأرخص ثمناً وأوسع انتشاراً . ومن أجل هذا كان انتصاره حاسماً وسريعاً . وكذلك كانت الطباعة أداة سحرية لنشر المعرفة وإنتاج الكتب بكميات هائلة . ومع أن بعض العناصر التقليدية المتمسكة بالقديم قد تصدت لها ووقفت ضدها[3] ، إلا أن

---

(١) في بلاد الفرس على وجه الخصوص .

(٢) ظلت اللفائف تستعمل حتى عصور متأخرة في أغراض خاصة كالحسابات والوصايا والحجج الشرعية وسلاسل الأنساب وأحيانا الموسيقى . ففي Staunton Harold Archives بمدينة ليستر Leicester بانجلترا توجد لفافة يبلغ طولها ٣٠ قدما عليها قائمة نسب ترجع إلى حوالى سنة ١٦٤٠ . وفي Trinity College بكمبردج لفافة رق من القرن الخامس عشر طولها ٦ أقدام عليها نص موسيقى (راجع : The Origins of the English Library 119)
ولكن هذه الأشياء نادرة وتخرج في جملتها عن موضوع الدراسة وهو الكتب .

(٣) ظهرت في أواخر القرن الخامس عشر فكرة أن الكتاب المطبوع على الورق لا يعيش أكثر من قرنين بينما يمكن أن يعيش الرق ألف عام . وبناء =

الفجر الجديد كان باهراً بحيث تبددت أمامه جحافل ظلمة الليل الطويل .

ولم تشهد بلاد العرب مثل هذا التحول من البردى إلى الرق ومن الرق إلى الورق ، وإنما عاش البردى والرق جنباً إلى جنب حتى بدأت صناعة الورق عندهم منذ أواخر القرن الثامن الميلادى وبدأ معها اندثار البردى والرق شيئاً فشيئاً ، وإن بقى للرق استعمالاته الخاصة فى كتابة المصاحف التى يراد لها طول البقاء .

فإذا تركنا مواد الكتابة إلى أدواتها لاحظنا أن الأمم القديمة التى كانت تستعمل الألواح كانت تغطيها بطبقة من الشمع وتحفر الكتابة عليها ، أو تطليها بلون أبيض وتكتب عليها بالمداد . وكان المداد هو المادة التى لا بديل عنها فى الكتابة على البردى والرق ومن بعدهما الورق . ومن هنا اكتسب أهميته على مدى التاريخ .

وقد عُرف المداد منذ أقدم العصور حتى إننا نرى بلينى يذكر أنه كانت هناك على أيامه (القرن الأول الميلادى) ثلاثة أنواع من المداد . أما العرب فقد عرفوه أول الأمر مجلوبا من الصين كما ذكر الجاحظ[1] ، ولكنهم لم يلبثوا أن صنعوا

= عليه نادى البعض بضرورة الاستمرار فى نسخ الكتب حتى التى يتم طبعها ومن هؤلاء The Abbot of Sponheim (انظر The Origins of the English Library : 110) وفى نفس الوقت كان كثير من هواة جمع الكتب يقفون من الكتاب المطبوع موقف العداء الصريح إلى حد أنهم لم يطيقوا اقتناءه بمكتباتهم الخاصة كما فعل الدوق الإيطالى فردريك ديربان Frederic d'Urbin (تاريخ الكتاب : ١٢٣) .

(١) كتاب التبصر بالتجارة : ٢٦ .

منه نوعين أحدهما من الدخان والآخر من العفص والزاج[1] والصمغ . وكان النوع الأول يناسب الورق ولا يصلح للجلود والرق لأنه — كما يقول ابن السيد البطليوسي — « قليل اللبث فيها سريع الزوال عنها »[2] . أما النوع الثاني فكان يستعمل في الكتابة على الرق وكان يسمى الحبر المطبوخ أو الحبر الرأس[3] ويتصف بالبريق واللمعان .

* * *

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الكتب قد ارتبطت في نشأتها بعاملين أساسيين أولهما عامل ثقافي حضاري قوامه التعليم والمتعلمون ، والآخر عامل مادي في قوامه البردي والرق والورق وطريقة تجهيزها بحيث تصبح صالحة لتلقي الكتابة . وبدون حركة علمية ، وبدون وجود مواد يكتب عليها ، لم يكن يمكن للكتاب أن يوجد في أي مكان من الأرض وفي أي زمان من التاريخ . وتلك هي الحقيقة الأولى التي تتبينها النظرة الشاملة إلى تاريخ الكتب والمكتبات ، وذلك هو الدرس الأول الذي نتعلمه من هذا التاريخ الحافل المجيد .

وبوجود الكتاب يصبح الطريق ممهداً لظهور المكتبة . فالمكتبة هي المكان الذي يجمع المادة المكتوبة وينظمها ويحفظها وييسر استعمالها لمن يبتغيها . وطبيعي

---

(١) العفص مادة سوداء غنية بحامض التنيك ، إذا نقعت في الخل سودت الشعر . أما الزاج الأخضر فهو كبريتات الحديد .

(٢) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب : ٦٨ .

(٣) صبح الأعشى : ٢ : ٤٦٦ .

ألا تظهر المكتبات فى أمة من الأمم إلا بعد أن يوجد لتلك الأمة تراث قوى ضخم ومتداول بين الناس كما كان الحال فى أثينا فيما بين القرنين الخامس والثالث قبل الميلاد ، وكما كان الحال فى بغداد فى القرنين الثالث والرابع الهجريين .

وكما ارتبطت الكتب على مدى التاريخ كله بمراكز العلم ، ارتبطت المكتبات بأماكن العبادة وكما ولد الكتاب فى قاعات الدرس ، كذلك ولدت المكتبات فى رحاب الهياكل والمعابد والأديرة والمساجد والأماكن المقدسة على اختلاف المذاهب والديانات . ففى العالم القديم كانت المعابد ابتداء من القرن الخامس ق . م . بمثابة مراكز للوثائق ومستودعات للسجلات المكتوبة على الألواح أو على البردى . فى أثينا — مثلاً — كان معبد Metroon مركزاً للوثائق[1] . وفى مصر ألحقت مكتبة الإسكندرية الشهيرة التى أنشئت فى أواخر القرن الثالث قبل الميلاد بالمتحف الذى كان يديره حبر من الأحبار . وفى برجاموس أنشئت مكتبتها الكبيرة فى القرن الثانى ق . م . فى رحاب معبد أثينا الوثنى .

فإذا تركنا بلاد الإغريق وذهبنا إلى الإمبراطورية الرومانية وجدنا أن المكتبات فيها قد أنشئت أيضا فى أماكن العبادة . ويكفى أن نذكر أن أهم ثلاث مكتبات عرفت فى روما فى ذلك التاريخ البعيد وهى المكتبة الأكتافية Octavian library والمكتبة البالاتينية Palatine library اللتان أنشأهما الإمبراطور أغسطس سنة ٣٣ وسنة ٢٨ ق.م. والمكتبة الألبية Ulpian library التى أنشأها الإمبراطور تراجان سنة ١١٤ م ارتبطت جميعها بمعابد مشهورة ، فقد

---

(1) The Origins of The English Library : 18

أنشئت المكتبة الأولى فى معبد جوبيتر ، وأنشئت الثانية فى معبد أبولو ، بينما أقيمت الثالثة بجوار معبد تراجان .

فإذا انتقلنا من العالم القديم إلى العالم المسيحى لاحظنا أن المسيحية دين كتابى اعتمد على ما يمكن أن تحدثه الكلمة المكتوبة من تأثير فى النفوس ، واتخذ من حركات التبشير سبيلا إلى قلوب الناس .

والكتاب سلاح رئيسى إن لم يكن هو السلاح الوحيد الحاسم فى مجال التبشير بأى دعوة ، ومن أجل هذا كان الصراع بين المسيحية والوثنية يتجلى فى محاولة الدين الجديد أن يقضى على التراث الوثنى وأن يقيم مكتبات تحل فيها الكتب الدينية المسيحية محل الكتب الوثنية القديمة . ولم تكن هذه المكتبات مستقلة بنفسها وإنما كانت تقام فى أحضان الكنيسة التى كانت بدورها تعلق أهمية كبرى على قراءة الكتب ونسخها وتعلمها وتعليمها .

ولا نكاد نصل إلى القرن الثالث حتى نرى المكتبات المسيحية وقد تناثرت فى أرجاء العالم المسيحى ترافق الدين الجديد فى كل خطواته . ولعل أهم هذه المكتبات تلك التى أنشأها أوريجين Origen (١٨٥ — ٢٥٤) فى الإسكندرية والمكتبة الأخرى التى أسسها الأسقف الكسندر حوالى سنة ٢٥٠ فى القدس .

وفى كل من الإسكندرية والقسطنطينية كانت هناك مكتبة بطريركية . وفى روما أسس البابا داماسيوس Damasus مكتبة بابوية فيما بين سنة ٣٦٦ وسنة ٣٨٤ ميلادية . وفى صحراء مصر انتشرت الأديرة تضم بين جدرانها مكتباتها الخاصة التى كان يقوم الرهبان على حفظ كتبها ونسخها . ويكفى أن نذكر معبد القديس باخوم St. Pachomius (٢٩٢ — ٣٤٥) الذى أقيم فى صعيد مصر قرب

دندرة وكانت فيه مكتبة محفوظة فى دولاب بسمك الحائط ، وكان يتناوب الإشراف عليها أمين فى الصباح وآخر فى المساء ، وكان يسمح فيها بإعارة الكتب للرهبان لمدة أسبوع واحد(١) .

وفى كتابات الآباء والكتاب المسيحيين من أمثال القديسين جيروم (٣٤٧- ٤٢٠ تقريبا) وأوغسطين (٣٥٤- ٤٣٠ م) نجد إشارات إلى مكتبات الكنائس تدل على أن هذه المكتبات كانت شائعة ومألوفة فى القرن الرابع الميلادى وماتلاه .

ومع تأسيس دير Monte Cassino على يد St.Benedict فى سنة ٥٢٩م بدأت مكتبات الأديرة والكنائس تحل محل المكتبات الوثنية وتأخذ وضعاً حيويا متصفا بالتطور والنماء . فى ذلك التاريخ أغلق الإمبراطور جستنيان المدارس الأثينية . ومن قبل هذا أغلقت المكتبة الالبية آخر معاقل التراث الوثنى الرومانى أبوابها . ومنذ سنة ٥٢٩ حتى عصر النهضة لم يكن هناك مكتبات غربية ليست كنسية فى أساسها وهدفها ، كما يقول إيرون(٢) . فى القرن السابع أسس إيسيدور Isidore مكتبة أسقفية ضخمة فى صقلية ، وظلت المكتبات الاسقفية تتتابع على مر الزمن حتى توّجتها المكتبتان اللتان أنشأهما كل من روبرت جروستست Robert Grossetoste وريتشارد دى بيرى Richard de Bury بانجلترا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

وهكذا نهضت مكتبات الأديرة التى انتشرت بالمئات فى أوربا الغربية برسالة المكتبات العامة فى العصور الوسطى . وبواسطتها وحدها انتقلت كنوز المعرفة

---

(1) The Care of books : 64

(2) The Origins of the English Library :22

من روما فى العصر الإمبراطورى إلى أوربا فى عصر النهضة .

وحينما ظهرت الجامعات فى القرن الثالث عشر تقلص دور المعابد والأديرة الدينية فى عملية التعليم وإنتاج الكتب . ومع ذلك فقد قامت الجامعات الأولى على أساس دينى ، وكانت جذورها تمتد فى أرض كنسية . ويكفى أن نذكر أن أول مكتبة لجامعة أكسفورد قد أقيمت فى كنيسة الجامعة St. Mary .

وهكذا ظل التعليم مرتبطا بالكنيسة حتى ليمكن أن نقول إن كل المتعلمين كانوا كنسيين ، أى من رجال الدين المسيحى . ومنذ القرن الخامس عشر تبدأ حركة إحياء الثقافة القديمة وقليلا قليلا تحل الدولة محل الكنيسة كمصدر للسلطة وكمسئول عن الثقافة ، فتنفصل المكتبات عن الكنائس شيئاً فشيئا ، ويتحول ولاؤها من الكنيسة إلى الدولة .

وكما ارتبطت المكتبات بالكنائس والأديرة فى العالم المسيحى ، كذلك ارتبطت بالمساجد فى العالم الإسلامى ، فقد كان المسجد هو المدرسة الأولى فى تاريخ التربية الإسلامية . ففى المساجد كانت حلقـــات الدرس ، وفيها كانت مجالس الإملاء حيث كان العالم يجلس ومن حوله تلاميذه ومريدوه فيملى عليهم ما يفتح الله عليه من علوم الدنيا والدين وهم يكتبون عنه ثم يجمعون تلك الأمالى فتصير كتبا ومؤلفات . وفى المساجد وجدت أقدم المكتبات فى تاريخ الإسلام ، فقد كان — ولا يزال — فى كل جامع كبير مكتبة ، وكان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد . فابن خلكان يحدثنا أن أبا نصر أحمد بن يوسف السليكى المنازى (المتوفى سنة ٤٣٧ هـ) « جمع كتبا كثيرة ثم وقفها على جامع ميافارقين وجامع آمد » ، وأنها كانت فى أيامه لا تزال موجودة « بخزائن الجامعين ومعروفة بكتب

المنازى[1] » . ويحدثنا ياقوت الحموى أنه ترك مرو فى سنة ٦١٦ هـ وفيها عشر خزائن للوقف لم يرَ فى الدنيا مثلها كثرة وجودة ، فيها خزانتان فى الجامع بلغت مقتنيات إحداهما ما يقرب من اثنى عشر ألف مجلد[2] .

ولم يكن جامع مرو هو الجامع الوحيد الذى تضم مكتبته بضعة ألوف من الكتب ، وإنما كانت المساجد المنتشرة فى شتى أرجاء العالم الإسلامى تحتفظ بكنوز الثقافة العربية وديعة غالية تصونها وتؤديها لأبناء الإسلام جيلا بعد جيل .

ولا تزال مظاهر ارتباط المكتبات الإسلامية بالمساجد ماثلة حتى أيامنا هذه فى كثير من الدول العربية . فالجامع الأزهر فى القاهرة ، وجامع الزيتونة فى تونس ، والجامع الكبير فى صنعاء ، كل منها له مكتبته الضخمة التى تزخر بنفائس التراث العربى والإسلامى منذ مئات السنين .

وهنا نتساءل : لماذا هذا الارتباط بين المكتبات والأماكن المقدسة ؟ وما أسبابه ؟ وبم نعلّله ؟

وللرد على هذا التساؤل تبرز أربع حقائق أساسية :

أولها : أن العلم عبادة وأن الكتب هى أدوات العلم ، فطبيعى أن تستقر المكتبات فى دور العبادة .

ثانيها : أن الكتب كانت فى العصور القديمة والوسطى وسيلة لنشر الدعوة ولم تكن غايتها التثقيف والتسلية . فتراث اليونان والرومان كان تراثا وثنيا يخدم

---

(١) انظر : وفيات الأعيان : ١ : ١٢٦ فى ترجمة أبى نصر المنازى .

(٢) معجم البلدان : ٤ : ٥٠٩

مدارس الفكر الفلسفى التى كانت قائمة فى ذلك التاريخ البعيد . وتراث المسيحية كان تراثا عقائديا يحارب الوثنية ويدعو إلى الدين الجديد ويقربه من الناس ويقرب الناس منه . وتراث الإسلام كان هو الآخر تراثا عقائديا يدعو الإنسانية بالحكمة والموعظة الحسنة إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، وإلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

كانت العقيدة إذن هى الغاية ، وكانت الكلمة المكتوبة هى الوسيلة ، وكانت أماكن العبادة بما لها من الجلال والقدسية هى أصلح البيئات لنشر العقيدة . وبمرور الزمن كانت دائرة الكلمة المكتوبة تتسع شيئا فشيئا لتستوعب علوم الدنيا مع علوم الدين .

ثالثها : أن أماكن العبادة أماكن عامة ، وربما كانت الأماكن العامة الوحيدة التى كان يتجمع فيها الناس فى تلك الأزمنة والعصور . ومن ثم فهى أنسب الأماكن لإنشاء مكتبات عامة ينتفع بها الناس كافة .

رابعها : أن هذه الأماكن أصوَن لما فيها وأكثر أمانا من غيرها وخاصة فى أوقات الفتن والحروب والثورات ، فإن لها من القدسية ما يجعلها بمنأى عن أن يصيبها التخريب أو يلحقها النهب والسلب .

تلك — فى رأيى — عوامل أربعة تبرر ارتباط المكتبات فى نشأتها بأماكن العبادة . وهو ارتباط انفصمت عراه مع الزمن ولكن بقيت عندنا شواهد عليه حتى الآن . وبقدر اقتناع الأمم والشعوب بأسباب هذا الارتباط يكون تمسكها به اليوم أو إعراضها عنه .

* * *

وعلى طول الطريق الذى قطعته المكتبات فى تاريخها القديم والوسيط تطالعنا ظاهرة معمارية ارتبطت بها وتجلت فى مبانيها على مدى قرون طويلة ، تلك هى ظاهرة الأروقة التى ظلت السمة الغالبة على المبانى العتيقة بمختلف أحجامها حتى عصر النهضة .

وأقدم الأروقة المعروفة لنا هى تلك التى كانت فى جامعة أرسطو Lyceum التى أنشئت بأثينا حوالى سنة ٣٣٥ ق . م[١] . ولم يقتبس ديمتريوس الفاليرى من هذه الجامعة فكرة إنشاء مكتبة الإسكندرية فحسب ، وإنما نقل أيضا تلك الظاهرة المعمارية إلى هناك. وتدل بقايا مكتبة برجاموس التى أنشئت بعد متحف الإسكندرية بقرن من الزمان على أن معبد أثينا الذى أقيمت فيه المكتبة كان به طابقان من الأقبية فى الجانبين الشمالى والشرقى ، وكانت بالطابق العلوى أربع حجرات تتخذ كمخازن للكتب[٢] .

وكما انتشرت الأروقة فى شتى أرجاء العالم اليونانى ، كذلك كان شأنها فى الإمبراطورية الرومانية . فلم تَخْلُ مكتبة من المكتبات التى نعرفها كالمكتبة الأكتافية والبالاتينية والألبية من الأروقة[٣] التى كانت تتخذ أماكن للقراءة وكانت تقوم إلى جوارها مستودعات الكتب ، ولئن كانت مكتبات القصور الرومانية قد

---

(١) نفس أتباع أرسطو يسمون المشائين لأنهم كانوا يتدارسون ويتناقشون وهم يتجولون . ومن غير المعقول أن يكون التجوال فى أماكن مغلقة .

(٢) The Care of Books . 10—11

(٣) انظر الوصف التفصيلى للمكتبة الأكتافية فى كتاب كلارك :
The Care of Books . 12—14

استقرت داخل تلك القصور ، إلا أن القراءة والكتابة كانتا دائما فى الأروقة المكشوفة .

فإذا تركنا العصر القديم وانتقلنا إلى العصر المسيحى طالعتنا تلك الظاهرة من جديد ، فلم تخلُ الكنائس من الاقبية والأروقة التى كانت تستعمل لأغراض مكتبية ، وكانت الكتب تحفظ إما فى مخزن صغير مجاور لها أو فى تلك الأروقة ذاتها .

وحتى القرن الخامس عشر الذى شهد بداية استقلال المكتبات بمبانيها وتخصيص قاعات مغلقة للاطلاع داخلها ، ظلت الأروقة والأقبية المفتوحة قلب الحياة ومركز النشاط والمكان الطبيعى للقراءة والكتابة فى الاديرة وذلك لسببين هامين :

أولهما : أنها كانت الحل الوحيد لمشكلة الإضاءة وخاصة فى بلاد يكثر فيها الضباب ويتكاثف فيها الظلام داخل البيوت كبلاد الرومان .

فن الناحية المعمارية لم تعرف العصور القديمة بناء قاعات كبيرة يتوافر لها الضوء الكافى للقراءة ، ولم تكن المبانى فى تلك العصور تعرف النوافذ إلا طاقات صغيرة تفتح فى الجدران بقصد التهوية لا الإضاءة . أما النوافذ الزجاجية الكبيرة التى نعرفها اليوم فلم يكن لها وجود قبل أواخر القرن السادس عشر . وحتى أواخر القرن التاسع عشر لم تكن الإضاءة الصناعية قد عرفت بعد ، وكانت الشموع هى الوسيلة الوحيدة لإضاءة الأماكن المظلمة ، ومن أجل هذا كانت القراءة لا تتم إلا فى ساعات النهار . ولعل هذا هو ما يفسر لنا ما سبق أن ذكرناه من أن مكتبة تراجان كانت تفتح أبوابها منذ الصباح حتى الظهيرة ، وهو وقت الضحى والضوء الباهر .

والسبب الثانى : أن نظام التعليم كان أساسه المحاضرات والمحاورات ، ولم تكن القراءة المنفردة هى طريقة التعلم وإنما كانت القراءة الجماعية هى السائدة فى تلك العصور . ومن أجل هذا لم يتعود الناس غير القراءة الجهرية يمارسونها حتى ولو كان كل واحد منهم يقرأ لنفسه . وكذلك كانت الكتابة فى ذلك الزمان البعيد ، بدليل أننا نجد القديس أوغسطين فى أواخر القرن الرابع يبدى دهشته من القديس أمبروز Ambrose (٣٤٠ — ٣٩٧) لأنه يقرأ قراءة صامتة[1] ، وبدليل أننا نجد كاتباً من القرن الثامن يعلق على كتاب نسخه بقوله « إن مهنة الناسخ ليست يسيرة كما يتصور الجهلاء ، فهو يستعمل ثلاثة من أصابعه فى الكتابة ، ويستعمل كلتا عينيه فى النظر ، وينطق لسانه بما تخطه يمينه ، وينتفض جسده مع كل كلمة تُكتب . وإذا كان كل عمل إلى نهاية ، فإن ثواب العمل باق إلى الأبد »[2]

وفى عصر كانت فيه القراءة والكتابة جهريتين لم يكن يمكن أن تكون المكتبة قاعات مغلقة تمتلىء بالدارسين ، وإلا ضجت بصخب لا يطاق .

لهذين السببين كانت صعوبات الكتابة والقراءة فى الأروقة أقل منها داخل المبانى ، سواء كانت مبانى أديرة أو معابد أو منازل . ومع أننا نجد كثيراً من النساخين يشكون من برودة جوّ الشتاء وخاصة فى بلاد الشمال حتى ليقول Sodonius Apollinaris فى القرن الخامس إن برد الشتاء كان يجمد المداد

---

(١) هذه الظاهرة ناقشها بالتفصيل J. Balogh : فى كتابه :
Philologus (1926), p.82

(٢) Wattenbach . Das Schriftwesen in Mittlalter, 1896
(The Origins of the English Library : 94)

على سن قلمه[1] ، إلا أن تلك الأروقة ظلت هى المكان الطبيعى الذى لا بديل عنه للقراءة والكتابة . وفى القرن الثالث عشر بدأ الرهبان يقسمونها إلى ما يشبه الغرف الخاصة أو الأركان . وظل الحال كذلك حتى استقلت المكتبات بمبانيها فى القرن الخامس عشر وخصصت فيها قاعات مستقلة للقراءة والبحث . وما زالت مبانى المكتبات تتطور وترتقى حتى أصبحت فى عصرنا هذا نمطاً من المعمار له خصائصه التى تميزه عن غيره من الأنماط .

---

(1) The Origins of The English Library : 95

الأفق الرحيب

وفى ختام هذه الدراسة يبرز لنا سؤال يقول : إلى أين تمضى قصة الكتب والمكتبات؟ وما موقع أقدامنا نحن العرب فى هذا الركب المنطلق نحو التطور والنماء؟

وللإجابة على هذين السؤالين لا بد من تقرير حقيقة هامة وهى أن تاريخ الكتب والمكتبات هو المرآة التى تنعكس عليها صورة تاريخ المعرفة بل الحضارة الإنسانية بأوسع معانيها . وفى عصر ينطلق فيه الإنسان من أرضه إلى الفضاء ويخطو بقدمه على وجه القمر ، يصبح الفارق بين الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة هائلا ورهيبا كما لم يكن من قبل . فلقد كان يمكن فى الماضى أن يوجد الجمل إلى جانب السيارة ولكن سفينة الصحراء لا مكان لها فى عصر سفن الفضاء ، وكان يمكن فى الماضى أن يتخلف شعب من الشعوب ويعيش ، ولكن الشعب الذى يتخلف اليوم يغامر بحقه فى الحياة .

والمكتبة فى أمة من الأمم هى وعاء المعرفة المتاحة لأبناء هذه الأمة . ولقد رأينا العلم الحديث يسخر كل إمكانياته فى خدمة الإنسان ، ورأينا المكتبات الآن تدخل عصر التقنية — إن صح هذا التعبير — وتستخدم الآلات الالكترونية فى خدمة الباحثين . وسوف يفتح المستقبل آفاقا جديدة واسعة أمام المكتبات . فأين نحن من هذا كله ؟

لقد كان تاريخ الكتب والمكتبات عند العرب مشرقاً فى عصر الدولة الإسلامية ثم خبا الشعاع وانطمس أو كاد ينطمس فى أواخر القرون الوسطى حين تفككت

تلك الدولة وانتقلت الحضارة إلى الغرب عبر البحر المتوسط تاركة من ورائها الأمة العربية تعيش فى ظلام حالك ترك ظلاله واضحة على الفكر العربى ، فلا عادت الكتب هى الكتب ولا عادت المكتبات هى المكتبات .

وعلى مشارف العصر الحديث يدخل الكتاب العربى عصر الطباعة بعد أكثر من ألف عام عاشها مخطوطا .

وعلى مدى التاريخ كله لم تعش لغة من لغات البشر كما عاشت اللغة العربية وكما ستعيش دون تحريف أو تبديل . فمنذ مئات السنين والعرب يتكلمونها ويكتبون بها على اختلاف ديارهم ومنازلهم . لغة واحدة يفهمها الجميع ، ويؤدى بها المسلم — مهما كانت لغته — صلاته ، لا تغنى فيها الترجمة عن آيات الله تتلى بلسان عربى مبين .

وهكذا احتفظت اللغة العربية بأصالتها ونقائها طوال تلك القرون يحدوها كتاب الله . وهذا يعنى أن تاريخ هذه اللغة أطول تاريخ وأن تراثها أغنى تراث . وتلك حقيقة تضفى على تراثنا قيمة كبرى لا ينبغى أن نشغل عنها ونحن نلهث وراء البحث العلمى المبتكر الخلاق .

إن تاريخ الكتب عند العرب تاريخ ممتد طويل ، وتاريخ المكتبة العربية كان دائما صورة أمينة لتاريخ الحضارة والفكر العربى فى ارتفاعه وهبوطه ، فى انطلاقه وانكماشه ، فى ازدهاره واضمحلاله .

ولقد أعطت الأمة العربية للفكر الأوربى فى عصوره الوسطى بسخاء ، ومن حقها أن تأخذ الآن ما يمكن أن يعطيه لها التقدم العلمى فى الغرب .

وفى مجال الكتب والمكتبات نلاحظ أن إمكانيات النشر فى الأمة العربية تفتقر إلى كثير من التخطيط والتنسيق والتنظيم ، وأن سوق الكتاب العربى أقل

بكثير من سوق الكتاب الأجنبي حتى في البلاد العربية نفسها . وتلك مسئولية تقع على عاتق الجهات المسئولة عن نشر الكتاب العربي لأنها هي المسئولة عن مستويات التأليف وهي المسئولة عن توجيه الفكر والرأي لدى الجماهير القارئة .

فإذا تركنا الكتب إلى المكتبات وجدناها تمضي قدما في طريق التطور والنماء ، تعوق الإمكانيات المادية خطاها من حين إلى حين ولكنها تسير دأباً بلا جدال . ولقد شهدت السنوات الأخيرة نشاطا مكتبيا لم يسبق له مثيل ، فأصبحت المكتبات القومية موضع اهتمام الدول والحكومات في الوطن العربي ، وظهرت إلى جانبها المكتبات العامة والمكتبات المتخصصة ومكتبات الجامعات والكليات والمكتبات المدرسية ، وأصبحت علوم المكتبات تدرس على المستوى الجامعي والدراسات العليا . ولسوف ينطلق المد المكتبي إلى غايته لأنه لا يخدم الدارسين والباحثين وحدهم وإنما يضع نفسه في خدمة الحياة وأبناء الحياة .

المراجع العربية[1]

١ — ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن على)

الكامل فى التاريخ . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٠ هـ .

٢ — الأصفهانى (أبو الفرج على بن الحسين)

الأغانى . القاهرة ، دار للكتب المصريه ، ١٩٢٧ — ١٩٦١ .

٣ — الاصفهانى (أبو نعيم أحمد بن عبد الله)

ذكر أخبار أصبهان . ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٣١ .

٤ — ابن أبى أصيبعة (أبو العباس أحمد بن القاسم)

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا . بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ .

٥ — ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)

الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم . القاهرة ، مكتب نشر الثقافة الإسلامية ، ١٩٥٥ .

٦ — ابن البيطار (ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد)

الجامع لمفردات الأدوية والأغذية . القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٢٩١ هـ .

---

(١) مرتبة هجائيا باسم الشهرة للمؤلف مع إهمال « أبو » و « ابن » فى الترتيب .

٧ ـــ الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد)
لطائف المعارف ، تحقيق إبراهيم الإبياري وحسن كامل الصيرفي . القاهرة ، دار إحياء الكتب العربيه ، ١٩٦٠ .
٨ ـــ الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)
البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٨ ـــ ١٩٥٠ .
٩ ـــ ــــــ ــــــ
التبصر بالتجارة ، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب . الطبعة الثانية . القاهرة ، المكتبة الرحمانية ، ١٩٣٥ .
١٠ ـــ ــــــ ــــــ
الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ، مكتبة مصطفى الحلبي ، ١٩٣٨ .
١١ ـــ ابن جلجل (أبو داود سليمان بن حسان الاندلسي)
طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد . القاهرة ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٥ .
١٢ ـــ ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي)
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . حيدر أباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٧ هـ .
١٣ ـــ الخطيب البغدادي (أبو بكر أحمد بن علي)
تاريخ بغداد أو مدينة السلام . القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٣١ .

١٤ — ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد)
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .
المقدمة : تحقيق على عبد الواحد وافى . القاهرة ، لجنة البيان العربى ، ١٩٥٧ — ١٩٦٢ .
بقية الكتاب : القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٨٤ ﻫ .

١٥ — ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ — ١٩٤٩ .

١٦ — الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد)
تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام . مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ .

١٧ — ابن سعد (محمد)
الطبقات الكبيرة ، نشر إدوارد سخو . ليدن ، مطبعة بريل ، ١٣٢١ — ١٣٣٩ ﻫ .

١٨ — ابن السيد البطليوسى (عبد الله بن محمد)
الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، تحقيق عبد الله البستانى . بيروت ، المطبعة الأدبية ، ١٩٠١ .

١٩ — ابن شاكر الكتبى (محمد بن أحمد)
فوات الوفيات ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ .

٢٠ - أبوشامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى)
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين . القاهرة ، مطبعة وادى النيل ، ١٢٨٧ هـ .
٢١ — عريب بن سعد القرطبى
صلة تاريخ الطبرى . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٣٩ .
٢٢ — ابن الفوطى (كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق)
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة . بغداد ، المكتبة العربية ، ١٩٣٢
٢٣ — فيليب دى طرازى
خزائن الكتب العربية فى الخافقين . لبنان ، وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة ، ١٩٥١
٢٤ — القفطى (على بن يوسف)
إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، تحقيق محمد أمين الخانجى . القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٠٩
٢٥ — القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على)
صبح الأعشى فى صناعة الإنشا . القاهرة ، دار الكتب ، ١٩١٣ — ١٩١٨
٢٦ — المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين)
مروج الذهب ومعادن الجوهر . باريس ، ١٨٦١ — ١٨٧٧
٢٧ — مسكويه (أبو على أحمد بن محمد)
تجارب الامم ، نشر هـ . ف . آمدروز . القاهرة ، مطبعة شركة التمدن الصناعية ، ١٩١٤ — ١٩١٥

٢٨ ـ المقدسى (محمد بن أحمد بن أبي بكر)
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق م . ج . دى جوج . ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦

٢٩ ـ المقرى (أبو العباس أحمد بن محمد)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب ، نشر ر . دوزى وآخرين . ليدن ، مطبعة بريل ، ١٨٥٥ - ١٨٦١

٣٠ ـ المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . القاهرة ، مطبعة بولاق ، ١٢٧٠

٣١ ـ ابن نباتة المصرى : سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٦٤

٣٢ ـ ابن النديم (محمد بن اسحاق)
الفهرست . القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٣٤٨ هـ .

٣٣ ـ ياقوت الحموى
معجم الأدباء ، نشر مرجليوث . الطبعة الثانية . القاهرة ، دار المأمون ، ١٩٢٢ ، ١٩٣٨ .

٣٤ ـ ـــــــ ـــــــ
معجم البلدان ، نشر فرديناند وستنفيلد . ليبزج ، ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠ .

٣٥ ـ يحى بن سعيد الأنطاكى
تاريخ يحى بن سعيد الأنطاكى ـ ملحق بكتاب «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» للبطريرك أفتيشيوس المكنى بسعيد بن البطريق . بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ١٩٠٩ .

المراجع الأجنبية

١ — ديورانت ، ول

قصة الحضارة ، تأليف ول ديورانت وترجمة محمد بدران . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٩ —

٢ — دال ، سفند

تاريخ الكتاب من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر ، تأليف سفنددال وترجمة محمد صلاح الدين حلمى . القاهرة، المؤسسة القومية للنشر والتوزيع ١٩٥٨ .

٣ — لجران ، فيليب إميل

شعراء الإسكندرية ، تأليف فيليب لجران وترجمة محمد صقر خفاجه . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٢ .

٤ — ميتز ، آدم

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . تأليف آدم ميتز وترجمة محمد عبد الهادى أبو ريده . الطبعة الثانيه . القـــاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ .

٥ — هيسيل ، ألفرد

تاريخ المكتبات ، تأليف ألفرد هيسيل وترجمة شعبان عبدالعزيز خليفة . دار الثقافة للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ .

6. Breasted, James Henry

Ancient Times, a history of the early world. Boston, Ginn and Company, 1914.

7. Butler, Alfred J.

The Arab Conquest of Egypt. Oxford, the Clarendon Press, 1902.

8. Burton, Margaret

Famous Libraries of the world ; their history, collections and administration. London, Grafton & Co., 1937.

(The World's Great Libraries, II)

9. Clark, John Willis

The care of books. Cambridge, the University Press, 1901.

10. Gibbon, Edward

The history of the decline and fall of the Roman Empire. Edited by J. B. Bury. vol. V. Fourth edition. London, 1911.

11. Irwin, Raymond

The Origins of the English Library. London, George Allen and Unwin, 1958.

12. Kenyon, Frederic G.

Books and readers in ancient Greece and Rome. Second edition. Oxford, the Clarendon Press, 1951.

13. Landau, Thomas (ed)

Enyclopaedia of Librarianship. London, Bowes and Bowes, 1958.

14. Mackensen, Ruth Stellhorn
Background of the history of Moslem Libraries. The American Journal of Semetic Languages and Literature. vol. 51 (1936), No. 2. p. 114—125.

15. Maspero, Gaston
The dawn of Civilization, edited by A.H. Sayce, translated from French by M.L. Mc Clure. London, Society for Promoting Christian Knowledge, 1922.

16. The Oxford Classical Dictionary. Oxford, the Clarendon press, 1950.

17. Pope, Arthur Upham
Masterpieces of Persian Art. New York, the Dryden press, n. d.

18. Stienberg, S.H.
Five hundred years of printing. Second edition. Middlesex, Penguin Books, 1961.

19. Thompson, James Westfall
The Medieval Library. Chicago, The University of Chicago Press, 1939.

الفهرس